سمار الليالي



سمار الليالى

يوسف السباعى

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

الإهـداء

إلى ابن آدم .. التافه الأحمق

إلى شر من استعمل ذهنه

إلى من ضيع عمره بين حرب .. وانتصار حرب

يوسف السباعي

في سبيل السلام

لا وطنية ولا دين ولا مبادئ ولاشئ من هذا كله يمكن أن يكون سبب النزاع البشرى إنها كلها مسميات براقة تستر وراءها الداء الأصلى ... وهو الطمع والانانية .

قلوب واجفة ... ونفوس حائرة راجفة ... وعيون مترقبه متلهفة .. تنتظر بين لحظة وأخرى النبأ الجازم بحرب أو سلام .

كان الناس فى انتظار حرب .. ومتى كان الناس فى غير انتظار للحرب ؟ إلا إذا كانوا مغرقين فى الحرب ؟

إنها قصة العالم منذ خلق .. قصة الطامعين .. وخير الله كثير . المتزاحمين وأرض الله واسعة .

إنها قصة الكفر بنعمة الله ، وإتلاف أرض الله الجميلة ، وسوء استعمال الجهد البشرى .. وتوجيه طاقته إلى الشر بدل الخير ، والفناء بدل التشييد ، والتحطيم والتدمير بدل الخلق والبناء ...

إنها القصة المبسطة ، زادت مع الزمن تعقيداً .. قصة النزاع على لقمه الفرد ، التى أضحت نزاعاً على أرض الوطن ، ثم نزاعاً على مبادئ الشعوب ... وكلها نتيجة الطمع والأنانية وقصور الذهن البشرى عن كل مشاكل البشر، إلا بالعنف والقوة ..

لاوطنية .. ولا دين .. ولا مبادئ . ولا شئ من هذا كله

يمكن ان يكون سبب النزاع البشرى . إنها كلها مسميات براقة تستر وراءها الداء الأصلى .. وهو الطمع والأنانية .

تبدأ قصتنا .. أو قصة البشرية .. فى زمن ما . غبر أو حضر أو أقبل . فهى قصة دائمة لا تنتهى أبداً . فى كل زمان ومكان ..

تبدأ والناس فى انتظار الحرب .. وزعماء الخصمين مجتمعين للتفاوض فى أحد القصور يتشاورون ويتناقشون ويتساومون .

وخلال المفاوضة .. تشحذ الأسلحة .. وتشحذ الجموع .. وتؤخذ الأهبة للقتال ، وبين مفاوضة الزعماء واستعداد القواد . كانت الشفاه الرقيقة تهمس مبتهلة إلى الله والأكف الحنون ترتفع ضارعة إلى السماء بأن يهدى الله الزعماء . ويسدد خطاهم فيتفقون على السلام . ويجنبون الناس شر الحرب وويلات القتال .

وبين تلك الشفاه الداعية والأكف الضارعة . كانت شفتان وكفان تدعوان بحرارة وتبتهلان بإخلاص فى إحدى حجرات القصر الذى اجتمع فيه الزعماء للتفاوض .

كانت الداعية المبتهلة « آمنة » إحدى جوارى القصر . جارية ساحرة هيفاء حوراء أنعم الله عليها بكل مزايا الجوارى من قدرة على الرقص وموهبة فى الغناء ، وكانت تبدو على وجهها مسحة جميلة من الحزن . وقد تساقطت من عينيها عبرتان كأنهما قطرتى الندى على ورق الورد .

كانت الفتاة تدعو الله أن يمنع الحرب . من أجل سلامة الناس

أجمع .. ومن أجل فرد كانت تحس أن حياتها معلقة بحياته .

كانت تحب أحد ضباط القصر من الفرسان وكانت تعلم أن فرقته ستكون في طليعة الفرق الذاهبة للقتال . وهي مازالت تذكر كيف يتمتها الحرب السابقه وحرمتها من أبيها . وتذكر أمها الراحلة التي ذهب الحزن بصوابها وأفقدها رشدها .

إنها تتخيل الحرب الآتية شبحاً سينقض ليأخذ حبيبها كما أخذت الحرب السابقة أبيها .

وكانت الأنباء تتواتر لديها بأن النقاش على أشده بين الزعماء وأن الخصومة تتزايد وأنه لايبدو هناك أمل في الاتفاق .

ونظرت الفتاة إلى السماء بيأس شديد . ثم برق في رأسها خاطر بدا في أول الأمر كالوهم أو الحلم ثم أخذت تقلبه في رأسها حتى وجدت فيه محاولة قد تأتي بأطيب الثمرات .

تذكرت شهر زاد والملك شهريار وكيف أنقذت الفتاة بنات جنسها من فتك الملك بما روته عليه من أقاصيص . وكيف استحوذت على تفكيره الف ليلة وليله . كف خلالها عن إراقة الدماء .

لم لاتحاول هي أن تفعل بالزعماء السفاكين ما فعلته أختها شهر زاد بالملك السفاك .

إن شهر زاد أنقذت بنات جنسها ؛ أما هي – إذا أفلحت – فستنقذ الناس أجمعين .

ونهضت الفتاة من حجرتها وتسللت إلى حجرة الاجتماع فوجدت الصخب على أشده وكان المساء قد أقبل وموعد العشاء قد قرب وقد مد السماط فى حجرة الطعام للمتفاوضين وأقبل شيخ السقاة يدعو الجمع للعشاء .

واقتربت الفتاة وهمست فى أذن الرجل ببضع كلمات فبدت على وجهه الدهشة ولكنه لم يملك إلا أن هز رأسه مجيباً .

— كما تريدين ..

وسرعان ما ارتدت الفتاة ثياب السقاة ، وعندما خرج الزعماء ليصطفوا على المائدة كانت هى فى مقدمة السقاة .

وعلى المائدة هدأت النفوس الغضبى بعض الشىء وعندما انتهى العشاء أقبل السقاة بالخمر المعتقه أخذت الفتاة تملأ للقوم الكأس تلو الكأس .

ودارت الرءوس وطربت النفوس . وعندئذ صاح أحد الزعماء برغبته فى مواصلة الاجتماع حتى يستقروا على أمر ، ولكن الفتاة سألتهم فى رقه أن يمكثوا قليلا حتى يريحوا أبدانهم المتعبة ونفوسهم المرهقة فيستطيعون مواصلة العمل بعد ذاك .

وبدأت الرقص والغناء وأخذ القوم يرقبون فى نشوة ويستمعون فى طرب ، حتى انتصف الليل أو كاد .

وأخيراً هم القوم بالانصراف ، فسألتهم الفتاة مرة أخرى فى رقة أن يجلسوا للاستماع اليها حتى تقص عليهم بعض القصص .

وساد السكون القوم وأرهفت أسماعهم للفتاة الخلابة الساحرة وبدأت الفتاة تقص قصتها الأولى قالت ...

الليلة الأولى
الهاربون من الجنة

ربح العمر ساعات السرور ، وأحكم الناس
في هذه الدنيا رجل استطاع ألا يحزن فيجعل كل
عمره ربحا .

ليلهم خمر ويومهم خمر .. لايكان أحد من أهل المدينة يذكر أنه رآهم مرة واحدة في وعيهم .. فهم دائماً في مزاح ومجون ، دأبهم الضحك ، وديدنهم الهزل .. وكان لهم في حانة المدينة ركن لايقربه غيرهم ... وكانوا يقضون فيه نصف حياتهم ، ويضعون النصف الآخر في مغازلة فاتنات المدينة ، والتحرش بأوغادها ...

كانوا ثالوثاً عجيباً ، لايجمع أي شبه بين أحدهم والآخر ، فهم أضداد مختلفون ، لايكاد يجمع بينهم إلا شبه واحد .. هو السخرية من الحياة الدنيا .

كانوا لايعرفون الجد أو يفكرون في أمس ولا غد .. إذ لم تكن الحياة في نظرهم إلا مهزلة كبرى .. فلم تكن تفزعهم مآسيها ، أو تحزنهم نوازلها .. كانوا يفهمون الدنيا على أنها سلسلة أضحوكات متصلة الحلقات .. فكانوا يضحكون من كل مابها ..

ولا يطلبون المال إلا بالقدر الذى يسعدهم ،لأنهم يعدونه وسيلة لاغاية ... فاذا استطاعوا الحصول عليه دون جهد أو تعب ، فلينفقوه على متعهم .. وإذا استعصى عليهم ، وأشقاهم الحصول عليه ، فلا كان ولا كانت متعه .

حاول حكيم ذات مرة أن يسدى إليهم النصح ، ويهيىء لهم من أمرهم رشداً . فقالوا له :

— إن ربح العمر ساعات السرور .. وأحكم الناس فى هذه الدنيا رجل استطاع ألا يحزن ، فجعل كل عمره ربحاً .

وكانت نيران الحرب فى ذلك الوقت توشك أن تشتعل ، وباتت المدينة وأهلوها فى شغل شاغل بالاستعداد للقتال ، والتأهب لخوض غمار الحرب .. وكان حاكم المدينة رجلا راجح العقل ، قوى الشكيمة ، ذا حنكة وتجربة .. فلم ينتظر حتى يأتى إليه عدوه فيغزوه فى عقر داره ، ويذيقه الخراب والدمار . بل أخذ يحشد قواه فى سرعة فائقة ، حتى يحرز قصب السبق ، ويبدأ عدوه بالهجوم فيأخذه على غرة ، ويشتت شمله ، ويفرقه أيدى سبا .

وخرج رجال المدينة جميعاً يشمرون سواعدهم وقد حملوا أسلحتهم وذخائرهم ، ولم يبق فى المدينة إلا النساء والأطفال والشيوخ ، وكل عاجز وذى عاهة ، وإلا ثلاثة رجال لم يكن قرع الطبول ليستهويهم ، أو أبواق الحرب لتستثير نخوتهم . وما كان هؤلاء سوى ثلاثتنا الهازلين الساخرين ، إذ جلسوا فى ركن الحانة

غريقين بين كؤوس الخمر والراقصات العابثات واللاهيات وقد علا ضجيجهم ، وأخذ أولهم – وكان عملاقاً ضخم الجسم ، عريض المنكبين ، ذا قوة هرقلية – يصيح بأعلى صوته :

– ياللحماقة .. لشد ما يدهشني هذا الآدمي الذي يأبى إلا أن ينغص حياته ، ويغرق نفسه في التعاسة والشقاء ، كأني به قد مل نعمة الحياة وهدوءها ، فعادت طبيعته المتوحشة تدفعه إلى البحث عما يشقيه ويهلكه أشد ما يزعجني ضجيج هذه الطبول أمرهم أن يكفوا عنها ، وإلا خرجت إليهم فسحقتهم جميعاً ، وكفيتهم هذه الحرب التي خرجوا لإثارتها .

وصاح ثانيهم – وهو شاعر رقيق الحاشية ، فياض الإحساس – يقول :

– لماذا يحارب هذا الإنسان الأبله ؟ أفي سبيل إقرار مبدأ من مبادىء الإنسانية ؟ أفي سبيل إقرار الطمأنينة ومحو الظلم ؟ أفي سبيل ضمان أمن دائم وسلام مستتب .. هبه لم يحارب في سبيل هذا كله .. ولم يحقق أي شيء منه أكان يصيبه من السوء أكثر مما يصيبه من الحرب ؟

وصاح ثالثهم : وكان رساماً فناناً ، جذاب الملامح ، دقيق التقاطيع :

– لاشك في أنها مهزلة من مهازل الدنيا ، فهؤلاء الحمقى الذين يذهبون إلى الحرب يعودون إلينا فرحين بالانتصار ، وقد فني

نصفهم ، وذاقوا الأهوال ، وأصبحت حالهم شراً من ذى قبل ، ثم يقولون بعد ذلك إنهم منتصرون ! ليتهم ما حاربوا وليتهم ما انتصروا ...!

ووصل نبؤهم إلى الحاكم ، فبعث إليهم من يخيرهم بين السجن أو ميدان القتال .. فتشاوروا في الأمر ، ثم استقر رأيهم أخيرا على أن ميدان القتال أخف وطأة من السجن .. فهناك سيستطيعون الحصول على ما يريدون من الخمر ، كما يتمكنون من الضحك والمزاح .. وأخيراً من يدرى فقد تسنح لهم الفرصة « بالزوغان » من الميدان قبل أن يصيبهم شر ، أو يمسهم أذى ...

وحمل الثلاثة أسلحتهم ، واندسوا بين صفوف المقاتلين ، وقد عبأوا مزاداتهم (زمازمهم) بدل الماء خمراً ، ورفعوا عقيرتهم بالغناء وأخذوا يلقون النكات ذات اليمين وذات اليسار ، وهم أشد مايكونون فرحاً ومرحاً .

ووصل الجيش إلى مدينة العدو . فضرب عليها الحصار ، وبدأ يستعد لمهاجمتها وشن أول هجوم فباء بالفشل ، وإذ كان العدو قد استحكم وراء حصونه المنيعة ، وكان دفاعه محكما ، فرد الجنود المهاجمين على أعقابهم .

وتكررت الهجمات ، وتكررالفشل . وأصيب المهاجمون بخسائر فادحة ، فصمم قائدهم على أن يوقف الهجوم ، وأن يشدد الحصار على المدينة ، حتى تنفذ مئونة المدافعين وذخيرتهم ،

فيضطروا إلى الإذعان والتسليم .

ومرت الأيام طويلة مملة ، وتملكت السآمة نفوس أبطالنا الثلاثة ، وضاقوا ذرعاً بهذه الحياة الكئيبة الموحشة ، وفاض بهم الشوق إلى حانتهم المحبوبة .

واجتمع الثلاثة ذات ليلة ، وجلسوا يروون ظمأهم من زجاجة خمر معتق ، وأخذوا يتذاكرون حياتهم الماضية المليئة بالمتعة والحبور ، فزاد تبرمهم وسخطهم . قال العملاق .

— يا صاحبيّ .. لقد عيل صبرى ، ولم أعد أطيق هذه الحياة .. وأجاب الفنان :

— لابد مما ليس منه بد .. وخير لنا أن نروض أنفسنا عليها ونحاول أن نجد فيها متعة لأنفسنا ، فاذا لم يكن ذلك فسنموت كمداً ..

فرد الشاعر :

— أى متعة نستطيع أن نجدها في هذه الحياة الجافة الجوفاء . ؟ إن من العبث أن نحاول ترويض أنفسنا عليها ، وخير لنا أن نفر منها لنعود إلى حانتنا المحبوبة .

ولكن زميليه لم يعجبهما اقتراحه ، فقالا له :

— نفر من المعمعة ؟ هذا والله هو العار .. ماذا يقول الناس عنا ؟

— لاتكونا سخيفين .. أتظنان أن غيابنا عن الميدان سيؤثر فيه ؟

هبا أننا متنا .. ! ماذا كان يقول الناس عنا ؟ سيهزون رءوسهم أسفاً ويقولون : « ماتوا عليهم رحمة الله » .. وإذا فررنا فماذا هم قائلون ؟ سيهزون رءوسهم أيضاً ليقولوا : « فروا عليهم لعنة الله » .. فلو فرضنا جدلا أن الله قد استجاب لدعواتهم أفلا تريان معى أنه خير لنا أن نتلقى لعنة الله ونحن أحياء فى الحانة ، من أن نتلقى رحمته ونحن جثث هامدة فى تلك البقعة الموحشة الجرداء ... ؟

وكان أن استقر رأى الثلاثة أخيراً على الفرار والعودة إلى الحانة ثانية . فتسللوا فى جوف الليل من بين الخيام . واختفوا فى الظلمة الحالكة .. وبدأوا يتخبطون على غير هدى ، وكانت الخمر قد أثقلت رءوسهم ، فاختلط عليهم الأمر حتى ضلوا الطريق ، واستمروا يضربون فى الأرض بغير وعى ، إلى أن سمعوا من حولهم أصواتاً تتحدث هامسة ...

وبدأت الخمر تنقشع من رءوسهم ، وقد تبين لهم فجأة أنهم قد زجوا بأنفسهم فى معسكر الأعداء ، وشعروا بأنهم ألقوا بأرواحهم إلى التهلكة .

وأبصرهم جندى من الأعداء ، فخيل إليه أن المهاجمين قد بدأوا هجومهم ، وأنهم نجحوا فى اختراق الصفوف تحت جنح الظلام ، وتمكنوا من مفاجأتهم فى هذه الليلة الحالكة .

وصاح الجندى منذراً قومه ، وتناقل الجنود صيحته ، فسرى

خبر الهجوم بين القوم ، وتملكهم الفزع ، وبدأ المرجفون يتناقلون الخبر ، وزادوا عليه من عندهم ما زادوا .. حتى انتهى الأمر بالقوم إلى الاعتقاد بأن جيشهم قد اندحر ، وأن الغزاة احتلوا المدينة ، وأخذوا يعيثون فيها فساداً ..

وعرف أصحابنا الثلاثة كيف يستغلون الفرصة التي سنحت لهم ، فتقدم العملاق إلى أحد الجنود وانقض عليه ، يقذف به فيحطم رأسه ، وأخذ الاثنان الباقيان يصيحان ويصرخان ، ويصدران أوامرهما كأن خلفهما جحافل متقدمة ....

وعاد أحدهما إلى قومه فى سرعة البرق ، وطلب إلى قائدهم أن يأمر جنوده بالهجوم دون أن يضيعوا لحظة واحدة ..

ولم يكد المدافعون يثوبون إلى رشدهم ، ويتمالكون نفوسهم ، حتى كان المهاجمون قد اخترقوا صفوفهم ، وملأوا شوارع المدينة ، وأصبح الخيال حقيقة لاغبار عليها ...

وما كادت الشمس تشرق حتى كانت المدينة كلها قد سلمت ، وكلل النصر هامات المهاجمين ، وأسكرتهم خمرة الفوز .

وعلم الحاكم أن الفضل فى هذا الانتصار الحاسم ، والظفر العجيب ، يرجع كله إلى أصحابنا الثلاثة ، فأرسل فى طلبهم لمقابلته .

وكان الثلاثة فى عجلة من أمرهم .. فقد كانوا يودون العودة إلى مدينتهم ، ولم يكن ذلك الانتصار الذى أحرزوه ليسرهم إلا لأنه قد عجل بعودتهم إلى حياتهم الممتعة فى ركن الحانة .

ومثل الثلاثة أمام الحاكم ، وأبلغهم أنه يعدهم مثلا أعلى للشجاعة والاقدام والتضحية وأنه لذلك قرر أن يكل إليهم أكبر المناصب ، وأنه يسعده ويشرفه أن يزوجهم من بناته الثلاث ، وكل ما يرجوه منهم أن يقلعوا عن الخمر ويكفوا عن حياتهم الماجنة الهازلة ويبدأوا حياة جديدة مليئة بالتقوى والورع ، حتى يغفر الله لهم ذنوبهم الماضية فيكون نصيبهم الجنة .

وبدا الفزع على وجوه الثلاثة ، وجحظت عيونهم ، فقد أزعجتهم فكرة الزواج ، والمناصب ، والورع والتقوى ، وكان ما عرضه الحاكم من منح كبرى تعتبر في عرفهم نقمة من أكبر النقم .

وساد السكون برهة ، وتبادل الثلاثة النظرات .. وأخيراً تكلم الشاعر في صوت ملئ بالتوسل :

— يا مولاى جزاك الله عنا خير الجزاء .. كم كنا نود أن نقبل ما غمرتنا به من نعم جلى ، ومنن عظمى .. ولكنها يا مولاى منن تسوقنا إلى الشقاء ، وتبعدنا عن النعيم .. فالزواج — أصلح الله مولاى — شر قيد يبتلى به الإنسان .. فهو أشبه بالشرك يغرى ما فيه من طعم سهل لذيذ .. فلا يكاد يقبل عليه ليلتهمه حتى يطبق عليه ، فلا يستطيع منه فكاكا أبد الدهر .. لا يامولاى حرام عليك أن تحرمنا الحياة .. أما المناصب فنحن نخشى على أنفسنا منها ، لأننا لانريد أن نصاب بالغباء والسخف والكبر والغرور ككل أصحاب المناصب . أما الورع والتقوى وما يلى ذلك من دخول

الجنة ، فنحن فى غنى عنه إذ ليس أبغض إلى أنفسنا يا مولاى من الاتقياء الورعين .. ولا يزهدنا شيء في الجنة قدر خوفنا من مقابلتهم هناك .

نعم يا مولاى نحن نقول مع عمر الخيام :

نبئاني ، إن غدا أهل الجنان
زمرة النساك أعداء الدنان
والأغاني .. أى خير تبغيان
بعد ذا في جنة الخلد وما
ضمنت ، لا حبذا فيها المقام

فاعفنا يا مولاى من منحك وارحمنا من عطاياك فكل ما نطلبه منك هو أن تطلقنا نعود إلى الحانة ، وأن تسمح لنا بمنحة واحدة ، هي أن نشرب من الخمر ما نشاء .

وأفاق الحاكم من ذهوله ، وصمت لحظة ، ثم هز رأسه فى أسف وقال ضاحكا :

– لك ما تطلب ..

ورفع الفنان رأسه ثم قال :

– منحة أخرى يا مولاى .. اسمح لنا أن نغازل من نشاء من النساء .

ورفع العملاق رأسه ثم قال :

– وأن نؤدب من نشاء من الأوغاد والسخفاء .

وضحك الحاكم وأجاب :

– لكم كل ما تطلبون ...

وانطلق الثلاثة .. وبعد لحظة ضمهم ركن الحانة مرة أخرى ، وعادوا كما كانوا : ليلهم خمر .. ويومهم خمر ...

وبدأت خيوط الفجر تتسلل من المشرق تسلل النعاس إلى جفون القوم ولم تكد تصمت « آمنة » حتى كانوا قد استغرقوا فى نوم عميق . لم يستيقظوا منهم إلا قبيل الظهر . وفى المغرب عاود القوم الاجتماع للتفاوض وبدأت المساومة والنقاش والنزاع حتى حل موعد العشاء ، وبعد العشاء بدأ الشرب والطرب والرقص والسمر . وأخذت آمنه تقص قصتها الثانية قالت :

* * *

الليلة الثانية
غرام المهرج

ترى ما حكمتك في خلقي هكذا ، وإذا كان لابد لك من خلقي على هذه الصورة المضحكة فلماذا جعلتني أعشقها فغصت علي عيشي وقضضت مضجعي

. وجوه عليها غبرة .. ترهقها قترة ... عاملة ناصبة ، ثائرة غاضبة ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لايسمن ولا يغني من جوع .. أضناهم اليأس ، وأذلتهم المسغبة .. وهم الذين منوا نفوسهم بكل ما يشتهون من حور عين ، وخمر مسكوبة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ومال جم وثراء عاجل وفير .

بدأ مرجل الثورة يغلي بين الجنود . وعصف الحنق بنفوسهم فانطلقت من أفواههم كلمتا « المال .. والطعام » تدويان في الفضاء دويا وخيل إلى قائدهم أن الأرض قد مدت وألقت ما فيها وتخلت ..

كان الرجل في مأزق حرج ، لايكاد يجد لنفسه مخرجا ، فقد بدأ ثورته على الملك ، وانتهى به الأمر إلى أن يضع خطة لمهاجمة عاصمته وكان على الثوار أن يقوموا بهجومهم الأصلي على الحصون الشرقية ، في الوقت الذي يحاول بعض منهم مشاغبة الحامية

من الناحية الغربية لتثبيتها ومنعها من التحول الى ناحية الهجوم الأصلي .

غير أن الظروف لم تكن مواتية له ، فقلبت خططه رأساً على عقب ، ورأى من العبث أن يحاول القيام بأى هجوم .

وتملكته الحيرة ، وأسقط في يده ، ووقف مكتوف اليدين أمام أربعين ألفاً من الجنود الثوار .. لايستطيع أن ينقدهم أجورهم ، ولا أن يقدم اليهم الطعام ولا المأوى .. فقد كان يعتمد فى هذا كله على الأسلاب والغنائم التى كان ينتظر الحصول عليها فى أثناء زحفه وتقدمه ، وكان يمني نفسه وجنوده بمعسول الأماني ، وعذب الآمال ... ولكن سهمه قد طاش ، وفأله قد خاب ... فوقف الجند من حوله يزأرون ، قد جن جنونهم فكأنهم الوحوش الكواسر .

ورأى القائد الثائر أنه لا سبيل إلى إنقاذ نفسه من ذلك اللهب الذى يوشك أن يحرقه ، إلا باطلاق هؤلاء الوحوش من قيودهم ، ليغزو بهم إحدى المدن المجاورة للعاصمة ...

ولم يكن بين الرجل وبين أهل المدينة ما يبرر هجومه عليهم ، ولكن لم يجد هناك من سبيل ، غير هؤلاء القوم الآمنين ، يدفع فيه دفعا ذلك السيل المتدفق ، وإلا فاض عليه فأغرقه .. وكان لابد له أن يهيىء وقوداً لذلك الحجم المتأجج ، وإلا امتد اليه لهيبه فأحرقه ...

ولم تهدأ للجند ثائرة إلا حينما تحركت جحافلهم متجهة إلى المدينة المجاورة وبدأ الهجوم قاسياً عنيفاً ، ولكن المدينة الباسلة استطاعت أن تصد الغزاة ، وأن توقع فى صفوفهم الفوضى والاضطراب ...

واضطرب قلب القائد ، فقد زاد ذلك فى حرج موقفه ، إذ كان يعتقد أنها ستكون صيداً هنيئاً ليناً ، وأن اجتياحها لن يستغرق منه إلا بضع ساعات ، فإذا بها أمنع من العقاب ...

وجد أن من العبث أن يحاول التفكير فى حصار المدينة وأدرك أن جنوده لن يستطيعوا معه صبراً ، فقد كانوا فى حاجة إلى المؤن ، ومن ثم فهم فى لهفة إلى نصر حاسم سريع .. وأحس أن الطوفان سيغرقه مرة أخرى ، فأخذ يبحث عن مجرى آخر يحول اليه ذلك السيل الجارف المتدفق ، فلم يجد خيراً من العودة الى بلدته نفسها !

وكانت مفاجأة لحاكم البلده ... لم يكن الرجل يتوقع قتالا ولم يكن لديه أى قوات يستطيع أن يدافع عن المدينة ، فسرعان ما اجتاح الغزاة الأسوار ، وتدفقوا داخل المدينة مثيرين فيها الرعب والهول ...

وطغت على المدينة كلها موجة جارفة من الاضطراب والفزع وهرع الناس إلى دورهم كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة .. فأغلقوا عليهم الأبواب ، وأحكموا الرتاج .. ولكن الجند

المتعطشين إلى الدماء ، والصهباء والنساء ، لم تستطع الأبواب أن تحول بينهم وبين ما يشتهون ! فانتزعوا الأبواب ، وهدموا الجدران ... وأمعنوا فى المدينة سلباً ونهباً ومضوا يعيشون فيها فسادا ، كأنهم ذئاب ضارية جائعة ...

* * *

فى ذلك الوقت ، كان يعيش فى المدينة رجل من أثرياء القوم .. وكرامهم ، وكان قصره ملجأ لكل محتاج ، وملاذاً لكل بائس ضاقت به سبل العيش ، وأضر به الفقر .. ومن ثم كان القصر يعج فى كل وقت بأفواج الزائرين ...

وكان للرجل نديم هو أعجوبة عصره ، وأضحوكة زمانه .. لايكاد الإنسان يراه حتى يغرق فى الضحك منه ، مهما يكن مكتئباً حزيناً ، ذلك أنه كان يبدو صورة كاريكاتورية لإنسان ما ، وليس ذلك الإنسان نفسه ! !

ولقد كان هذا المهرج يبدو كأنه ضرورة من ضرورات القصر ، وكان لا حرج عليه فى التنقل بين أرجائه ، يوزع النكات ، وينثر الملح والفكاهات ..

وكان المهرج يحمل فى باطنه سراً عجيباً . لم يجسر على أن يبوح به لإنسان ، فبالرغم مما كان يبدو على مظهره من سعادة وسرور وبالرغم من ذلك المرح الذى لم يكن ليفارق وجهه ، فإن صدره كان يجيش بالحزن ، ويفيض بالأسى .

كان المهرج عاشقاً أضناه الهوى وبرح به الحب .. بل كان غرامه ناراً آكلة تحرق صدره .. وجمرات تتأجج فى فؤاده .. دون أن يستطيع أن يفتح فاه .. حتى للصياح أو التألم .. فقد كان يعلم أن مثله ليس من حقه أن يعشق .. وأنه يجب أن يكبت شعوره فى صدره ..حتى لا يعرف الذين من حوله أنه صب وله .. فتكون المهزلة الكبرى ويصبح غرامه البائس مبعثا للهزل والسخرية والمجون ..

وكان المهرج قد أحسن صنعا .. بذلك الكتمان .. فقد كان غرامه حقا من مفارقات الدهر العجيبة .. فان معشوقته – وهى ابنة السيد الثرى – كانت آية فى الجمال .. فقد سواها الخالق .. وأبدع خلقها بقدر ما قبح فى صورة المهرج ...

وكان الرجل كثيراً ما يقف أمام المرآة يتأمل نفسه .. ثم يرتد عابساً مكفهرا وهو يخاطب نفسه قائلا :

– ليس هناك من أمل فى حبها . ما دام للفتاة عينان تبصران ذلك الهيكل المضحك العجيب .. رب إنى لم أكفر بالذى خلقنى إلا يوم عشقت الفتاة ...

ترى ما حكمتك فى خلقى كذلك ؟ وإذا كان لابد لك من خلقى على هذه الصورة المضحكة فلماذا جعلتنى أعشقها ، فنغصت على عيشى وقضضت مضجعى !

ولم تكن الفتاة تكرهه ، بل كانت – على العكس من ذلك –

تعطف عليه وتحبه ، ولكن أى حب .. حب خير منه الكراهية والبغضاء .. حب لايفترق عن حبها لحيوان أليف ، أو قرد جىء به للترفيه والتسلية !

وانطوى الرجل على نفسه ، وقنع بما هو فيه ، حتى كان ذلك اليوم الذى اجتاح فيه الجنود أسوار المدينة ، وأعملوا فيها الذبح والتقتيل ، والتدمير والتخريب ..

وهجمت ثلة منهم على بيت الثرى فقتلوا حراسه ، واندفعوا داخل الحجرات ينهبون النفائس والأموال ، واستطاع الرجل أن يتحصن فى إحدى الغرف ومعه ابنته وبعض الخدم ، وقد أحكمو إغلاق الأبواب ، وأخذوا يضعون الأثاث أكواماً خلفها ، حتى يتعذر على الجند فتحها والوصول إليهم .. ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح .. إذ تهاوت الأبواب تحت ثقل ضربات الجند .. وسرعان ما اقتحموا الغرفة .. وقد علا صياحهم .. وارتفع ضجيجهم .. ولمعت سيوفهم وحرابهم .. مكشرين عن أنيابهم .. كأنهم وحوش جياع ضارية .

وكان المهرج طليقاً فى الدار . لا يكاد يشعر به أحد .. وكان يبصر الكارثة التى توشك أن تقع دون أن يستطيع دفعها وجن جنونه عندما رأى الأبواب تتهاوى والوحوش تندفع نحو الحجرة .. ووجد من العبث أن يقتحم الغرفة لينقذ الفتاة من براثنهم .. فقد كان يعلم أنه آخر من يصلح لهذا .. وأنه قد يوطأ بالأقدام قبل أن ينجح فى الوصول إلى الفتاة !

على أن المهرج لم يكن ليضيع وقته عبثا ، بل أسرع فى الصعود إلى سطح الغرفة .. وظل يزحف حتى بلغ كوه صغيرة فى سقفها فأزال غطاءها .. ثم أطل برأسه فرأى .. وياالهول ما رأى !

كان الغزاة يتقاتلون مع الخدم . وبدأوا يتهجمون على الفتاة .. وعلى إحدى الخادمات وقد أخذ الثرى يدافع عن ابنته بجسمه .. ولكنهم ألقوه صريعا لاحراك به !

وامسك المهرج قوسا وسهاماً .. وبدأ يصوبها من الكوة الضيقة ، فانطلقت سهامه وسط الغرفه الثائرة الصاخبة !

وانطلق السهم تلو السهم ، وفى كل مرة كان يصيب مقتلا .. والجند فى هرج ومرج ، وضجيج وعجيج ، يتساقطون واحدا بعد واحد ، دون أن يدرك أحد منهم كيف يصرعون !

وانتهت سهام المهرج ، وانتهى معها آخر جندى من الطغاة . فأسرع المهرج فى النزول إلى الحجرة .. وأخذ يلبس الفتاة ثياب أحد الجنود ، ثم أسرعا فى مغادرة الدار . واختفى المهرج والفتاة فى دار امرأة فقيرة من أقربائه ، فى أقصى المدينة ، وبدأت الفتاة تحس بعض الشيء أن المهرج يعشقها ، فأصابها الذهول مما رأت ، ذلك أنه لم يكن يخطر ببالها قط أن مثل هذا المخلوق يمكن أن يفكر فى عشقها ، ولم تكن تستطيع أن تحمل نفسها على مجرد التفكير فى مبادلته الحب ، بالرغم من أن كل جارحة فيها تنطق بتقديره ، وبالاعتراف له بأنه أنقذ حياتها .

وكان المهرج قد بدت له بارقة أحيت فى نفسه موات الأمل ، فقد خيل إليه ، بعد أن أنقذ الفتاة ، أن نظرتها إليه ستتبدل ، وأن من المحتمل أن ترى فيه رجلا آخر غير ذلك المهرج الذى اعتادت أن تسخر منه ، وتضحك عليه . ولكن أمله انهار ، فقد كانت الفتاة أبعد ما تكون أن تحفظ له فى قلبها إلا الشعور بالاعتراف بالجميل الذى أداه لها .

ومضت الأيام والشهور والمدينة ترزح تحت عبء الطغاة ، وتئن من ظلمهم وقسوتهم ز حتى انقضى عام دون أن يجد الناس لهم منقذا يزيح عنهم ذلك الكابوس الجاثم على صدورهم .

وساد الفقر المدينة ، وبدأ شبح المجاعة يهدد الناس ، وانتشرت الجثث على قارعة الطريق لاتجد من يواريها التراب !

وأخيرا .. قيض الله من لدنه خصما جبارا بدأ يفتك بالجنود العتاة الظالمين ، فأخذوا يفرون من المدينة مروعين فزعين .. ولم يكن ذلك الخصم الفاتك سوى وباء أرسله الله إلى المدينة أبادهم « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وأصاب الوباء ، فيمن أصاب ، معشوقة المهرج ، فأحس أن صاعقة قد انقضت عليه ، وأخذ أهل الدار ينفضون عنها هاربين ، حتى لاتصيبهم العدوى . فلم يبق إلى جوار الفتاة غير عاشقها الولهان الأمين .

ومرت الأيام مظلمة حالكة ، والفتاة تتقلب بين براثن المرض ، والرجل لاتغفل له عينان وليس له من عمل سوى تمريضها والصلاة من أجلها ...

وبدت بوادر النجاة ، وأخذت الحياة تدب فى الفتاة رويدا رويدا .. ولكنها لم تعد ترى النور .. فقد أفقدها المرض بصرها !

وأحسست الفتاة ما فعل الرجل من أجلها ، وبدأت تدرك أن فى الرجال شيئاً يمكن أن تعشقه المرأة غير المظهر الجميل ، وذلك هو القلب الجميل .. وشعرت بأن النفس القوية قد تكون أحيانا أحب إلى القلب من الجسد القوى ...

وتطرق الهوى إلى قلب الفتاة الضريرة .. ولكنها كانت تخشى أن يكون قلب الرجل قد تحول عنها ، بعد أن أصابها العمى ... فكتمت شعورها فى صدرها ...

ولكن الرجل أحس أن الفتاة قد بدأت تحبه أخيراً ، فغمره شعور بالسعادة لا يوصف ، وأحس أن كل ما مر به من يأس وألم وحزن وضيق ، قد طغت عليه تلك السعادة فامحى من ذاكرته حتى ذلك الحزن العميق الذى أصابه حينما علم أن الفتاة قد فقدت بصرها .

وفى ذات يوم أبصر الرجل صورته فى المرآة ، فنظر إلى هيكله المضحك ، ولم يتمالك نفسه من الابتسامة ، وهمس مخاطباً نفسه فى المرآة :

— وأخيراً يا هيكل السوء .. عشقتك الفتاة بعد طول عذاب

وعناء .. ! لقد كنت أقول لك ألا أمل لك فى حبها ما دامت فيها عينان تبصران منظرك المضحك .. ولقد صح قولى ، فإنها لم تعشقك إلا بعد أن وثقت من أن عينيها لن تقعا على شكلك الهزلى المثير .!

وصمتت آمنة عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب انصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

* * *

الليلة الثالثة

يذكرها وتنساه

ما نسيتك قط وإن كنت أتمنى لو استطعت نسيانك . كل ما في الأمر أني كنت أخشاك فحاولت تجنبك وتجاهلك .

لمحها ذات مرة ثم رآها في المرة التالية بعد أربع سنوات طوال .. فكأنهما ما افترقا وما مرت عليه أيام ولا ليال . فقد انطبعت صورتها في رأسه ، ونقشت في فؤاده ، ثم استمرت كامنة فيه لاتمحى ولا تزول .. كانت صورتها من ذلك النوع الذى لاتسهل إزالته من النفس ، نفسه هو على الأقل .. إذا استطاعت النفاذ إلى قلبه في مثل لمح البصر فاستقرت فيه وتمكنت .

ومرت الأيام ، وتوالت عليه صروف الزمن وأحداثه ، وشغلته عنها غيرها من صائدات القلوب . فما عاد يذكرها ، وتوالت على قلبه غيرها من الفاتنات فبهتت صورتها حتى خيل إليه أنها أمحت .

ولكن صاحبنا كان واهما ... فما غادرت الفتاة قلبه ، وما أنمحت صورتها من رأسه ، إذ ما كاد يقع بصره عليها في المرة الثانية ، بعد مضى تلك الحقبة الطويلة ، حتى خيل إليه أنه لم يفارقها لحظة واحدة ، كأن هذه السنين الأربع الطوال لم تكن سنين بعد

وفراق ، بل وصل وتلاق ، وأحس نحوها ما يحسه نحو إلف طالت بينهما الصحبة ، وربطتهما أواصر الحب .

كان لقاؤهما الثاني في حفل من الأصدقاء فجلس هو أمامها ، وقد علق بصره بوجهها فما فارقت عيناه عيناها لحظة واحدة كأن بالفتاة مغناطيساً جذب إليها بصره فما عاد يستطيع عنها تحولا ولا حراكا .. أو كأنه كان يخشى ألا يراها في المرة التالية ، إلا بعد أربع سنين أخرى ، فمضى يشبع منها نهمه ويروى غلته ، وجعل يتزود من وجهها بما يقيم أوده ، ويمكنه من الحياة ، حتى يجود عليه الزمان بلقاء آخر .

ولكن الزمن كان كريماً في المرة التالية فلم تكد تمضى أيام قلائل حتى رآها مرة أخرى .. والتقت عيناه بعينيها ، فأحس بفيض من السعادة يغمر قلبه ، ولكنها انكرته وبدا عليها كأنها ما رأته من قبل ومرت عليه دون أن تعيره أدنى التفات .

وقد لايكون في عملها ما يدعو إلى العجب إذ لايبعد أنها حقا لم تعرفه ، ولم تذكره فما رأته غير مرة واحدة ، وسط كثيرين غيره .. ولم يكن فيه ما يستر على النظر أو يثير الاهتمام . اللهم إلا شدة حملقته فيها .. وحتى هذا ربما لايكون قد استرعى انتباهها .. فقد كانت نظراتها متحولة عنه ، لاتكاد تحس وجوده ....

ولكن ذلك كله لم يكن يخطر له على بال ، إذ خيل إليه أنها

ما دامت قد ملأت قلبه ورأسه ، وتفكيره وحسه ، وما دام هو قد بات يشعر بائتلاف روحيهما ، وتآخى نفسيهما ، فلا بد أن تكون هى الأخرى قد أخذت تشعر بما يشعر به .. أو على الأقل تشعر بوجوده ...

وعجب لنفسه كيف ذكرها بعد أربع سنين ، وأنكرته بعد أربعة أيام ؟ !

وأحس الفتى كثيراً من الضيق والأسى ، ولكنه أقنع نفسه فى النهاية بأنه خير له أن يراها وتنكره ، من ألا يراها أبداً . وبعض الشر أهون من بعض ... !

وتكررت رؤيته لها ، وتكرر إنكارها له .. ولكنه لم يعد يأسف ولا يتحسر ، بل اكتفى بأن يرمقها من بعد فيشبع عينيه من جمالها الهادئ ، وفتنتها الساكنة الصامتة . وكان لايمل النظر فى وجهها الشديد الصفاء ، الجميل التقاطيع ، وشفتيها المليئتين رقة وعذوبة ، واللتين كان يخيل إليه ، من فرط ما بهما من فتنة وإغراء ، أنهما لو مستاه مرة واحدة ، لأشعلتا روحه ، وألهبتا قلبه !

كان يتمنى لو قابلها مرة على حدة ... حتى يفرغ لها ما بقلبه ، ويطلعها على خبيئة نفسه ، ومكنون حبه . وسنحت الفرصة أخيراً ، فاقتنصها ...

ذلك أنه خرج ذات يوم للنزهة على جواده خارج المدينة ، ومضى يسير وسط المروج الخضر ، وهو ينشد أغنية شعبية

محبوبة ، وقد تملكه الطرب ، وهزه النغم الجميل .. وكان كل ما حوله يملأ النفس بهجة وسروراً ، وكانت أشعة الشمس الدافئة تبعث فى الكون حرارة لذيذة ممتعة ..

ودار الفتى بجواده حول ربوة عالية معشوشبة ، فإذا بالفتاة تعدو أمامه وجهاً لوجه ، بدمها ولحمها ، وقد امتطت صهوة جواد أشقر ذهبى !

وذهل الفتى .. وكادت تفلت منه صيحة الدهشة والفرح ، ولكنه تمالك نفسه ، وتصنع الثبات ، ثم تقدم نحوها كأن بينهما سابق ود وصداقة ، ولكن الفتاة بدا عليها أنها تنوى تجاهله وإنكاره كعادتها .. فلم تعره التفاتاً ، بل لكزت جوادها تستحثه على الاسراع فى سيره !

ولكن الفتى كان قد أصر على ألا يدع الفرصة تفلت من يده .. وصمم على أن يسر لها ما يود قوله ، كارهة كانت أم راضية .. فاعترض سبيلها ، وحياها برأسه فنظرت إليه — وقد بدت عليها الدهشة المشوبة بالاستنكار — ثم هزت رأسها كأنما تتساءل : فيم اعتراض الفتى !

نظر إليها الفتى نظرة طويلة ، ثم قال ضاحكا :

— إننى أعرف أنك تعرفيننى ، فلا تحاولى إنكارى ، ولا تقولى إنك لاتذكريننى .

وتفرست الفتاة فى وجهه برهة ، وقد بدا عليها أنها تحاول إجهاد نفسها لتذكره ، ولكنها هزت رأسها أخيراً ثم أجابته ببساطة :

– قد أكون رأيتك قبل الآن ، ولكنني لا أذكر أين ومتى ...

لقد رأيتني مراراً ، ولكن يخيل إلى أنك تتعمدين تجاهلي ... فمنذ بضعة أيام التقيت بك ، مع صديقين تعرفينهما كما تعرفينني فحييتهما وأغفلتني ... وكأني بك تقصدين إنكارى متعمدة مع سبق الإصرار ..

– ليس هناك ما يدعوني لإغفالك أو إهمالك ، فلست من قلة الذوق بحيث أتجاهل من أعرف ، ولكن كل ما هنالك أنني أقابل في كل يوم عشرات من أمثالك ومن العبث أن أحاول تذكرهم جميعاً ... ومن الغباء أيضاً أن أسلم على كل رجل أصادفه ..

وكانت الفتاة جادة في قولها فحز ذلك في نفس الفتى ، إذ كان يظن أنها – على أقل تقدير – تعرفه وتشعر به .. هذا إن لم تكن تحس شيئاً من الميل إليه ...

ونظر في عينيها ، وقد بدت عليه مظاهر الأسى والأسف ، وهم أن يسير في طريقه متخاذلا ، ولكنه وجد أنها تحدق فيه . ولم تلبث أن بدرت منها ضحكة لم تستطع كتمانها فأدرك مما ارتسم على وجهها أنها لم تكن جادة فيما قالت ، وأنها تعرفه تمام المعرفة ، وكل ما في الأمر أنها كانت تتخابث عليه ، إما دلالا أو لحاجة في نفس يعقوب !

وابتسم الفتى وقال :

– على أية حال ، لاشك في أنك قد عرفتني الآن ، وأنك

ستذكرينني بعد ذلك جيداً .. ولا أخالك ستتجاهلينني مرة أخرى ، أو تحرمينني حتى من إيماءة من رأسك ونظرة من عينيك !

وضحكت الفتاة لتجيبه :

لك ما تريد ..

وصمت الفتى برهة ، ثم سألها :

– أهناك ما يمنع الآن من مرافقتك فى العودة ؟

– لو كان لى الخيار ، لفضلت أن أعود وحيدة !

– ولكنى لن أترك لك الخيار ، فقد حزمت أمرى على مرافقتك .. ولو بالإكراه !

وهنا هزت الفتاة رأسها فى عجب ، وسألته ضاحكة :

– فلماذا تسألنى إذن ؟

– من باب الأدب .. فإذا لم ينفع الأدب ، فإن سوءه قد ينفع !

وسار الاثنان متلاصقين .. وخيل إلى الفتى أن الكون قد ازدهر فجأة ، وأن الدنيا قد شدا بها شاد نفخ الروح فى جميع مخلوقاتها وكائناتها .. فصدح الطير ، وابتسم الزهر ، وغنت الريح فرقص على أنغامها العشب ، واهتزت الأغصان من فرط النشوة والطرب !

وكان الفتى ذا نفس رقيقة شاعرة ، وأفاض عليه جمال الطبيعة ، وسحر الهوى رقة فوق رقته ؛ فانطلق فى الحديث يسكب فى أذن الفتاة حلو الكلام ، وعذب القول . وتكلم فى صراحة الطفل ،

فقص عليها كل ما يحسه نحوها ، وأفرغ ما حواه قلبه من أحاديث الحب والهوى .. ولم يبد على الفتاة أنها استاءت لجرأة الفتى وصراحته ، فقد ظهر البشر على وجهها ، وغمرها السرور ، وردد الفضاء صدى ضحكاتها الرنانة بين آونة وأخرى ...

وافترقا أخيراً ، وهو يحس أن الدنيا كلها قد باتت ملك يديه ، وأصبح حقيقة واقعة ما ظنه حلماً من أحلام الدجى ، ووهماً من أوهام الخيال .. فكم من ليلة أسعده أن يقضيها فى تخيل لقائها ، وكم من ساعات لذيذة ممتعة اغتنم كل ما فيها من لذة ومتعة ، من مجرد تصوره أنها قد لانت له ورقت !

فكيف به ، وقد أضحى كل هذا حقيقة ملموسة ، ولذة محسوسة !

ومنذ هذا اللقاء ، اتخذ الأمر فى نفس الفتى صورة جادة .. فقد بدأ الهوى يستحكم قلبه ، وتملك غرامه كل مشاعره ، حتى كاد يبلغ به حد الهوس والجنون .. وحاول أن يلتقى بها مرة أخرى ، فذهبت محاولته أدراج الرياح ، حتى أقلقه اختفاؤها وأقض مضجعه ...

وفى ذات يوم رآها أمامه فجأة ، فكأنها قد نزلت من السماء ، كما تنزل رحمة الله على أهل الجحيم ، فتنقلهم إلى الجنة .. وخيل إليه أن قلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه لفرط سروره وابتهاجه ، وتقدم إليها وكل ذرة فيه تكاد تنطق بالسعادة والهناء ...

ولكن الفتاة العجيبة نظرت إليه في جفاء وبرود ، وأنكرته كل الإنكار ، فكأنه ما اعترف لها بهواه وما بثها نجواه !

ورفعت رحمة الله عن الفتى فإذا به يعود إلى الجحيم مرة أخرى ، بعد أن لمحت عيناه الجنة ، وإذا به أشقى وأتعس مما كان .

ليته لم يرها .. فظل يعيش على لحظات الهناء التى منحته إياها ، فقد كان يستطيع أن يعيش بها قانعا أبد الدهر !

وملكه اليأس ، وخيمت على نفسه الكآبة ، فلم يكن يرى إلا واجماً مطرقاً ، وتبدل مرحه ومزاحه الدائم حزناً لايفارق وجهه ...

وكان كثيراً ما يخرج بجواده ، فيذهب إلى تلك الربوة المعشوشبة ، حيث صادفها على جوادها الأشقر .. ثم يترجل ، ويترك جواده يرعى العشب ، ويجلس هو خلف الربوة ، وفى نفسه بصيص من الأمل أن الفتاة قد تأتى مرة أخرى ، فينعم بلقائها ، ولا يتركها تذهب ، حتى لاتعود فتنكره ، ثم تنساه ...

وفى يوم صحت سماؤه ، وسطعت شمسه ، كذلك اليوم الذى لقيها فيه ، خرج الفتى كعادته ، ووصل إلى الربوة فأطلق جواده ثم جلس فى أشعة الشمس ، وأغمض عينيه فى شبه إغفاءة ، وأطلق لأمانيه العنان .. ورأى الفتى فيما يرى النائم ، أنه وصاحبته على ظهر سفينة فى يوم عاصف ذى ريح .. وأن السفينة قد أخذت تدفعها الرياح العاتية ، وتتلقفها الأنواء الثائرة .. وأن الزمام قد أفلت

من يد الربان ، وذهب كل أمل فى النجاة .. وأحزن الفتى أن يرى فتاته تذهب في جوف الماء فحزم أمره ، وصمم على إنقاذها .. وكان من الجنون أن يحاول أحد من ركاب السفينة النزول فى قوارب النجاة ، وسط تلك الأمواج الشديدة العاتية ، ولكن الفتى قذف بأحد هذه القوارب إلى الماء ، وحمل الفتاة فقفز بها إلى جوف القارب ، ثم تبعه بعض الركاب ممن دفعهم حب الحياة إلى التعلق بأى خيط مهما يكن واهياً .. وانطلق القارب تدفعه الرياح الهوج كالكرة في يد الصبى ، حتى وصل إلى شاطىء صخرى لجزيرة نائية موحشة ، فقاد الفتى فتاته وسط صخور الشاطىء ، حتى وصلا إلى اليابسة سالمين .

وابتعد الفتى بصاحبته وسط أدغال الجزيرة وأشجارها الكثيفة ، حتى أصبحا وحيدين لا ترقبهما عين ، ولا تسمعهما أذن ، وهنا خيل إليه أنهما آدم وحواء فى جنة الفردوس !

وأمسك الفتى بيديها ، وقد أحس النعيم يغمره ، والسعادة تملأ جوانحه ، وسألها في صوت عميق : ترى أتعودين إلى نسيانى ثانية .

وبدت آيات الحب واضحة في عينى الفتاة ، فأجابته بصوت ملؤه الرقة والحنان :

— ما نسيتك قط ، وإن كنت أتمنى لو استطعت نسيانك ! ... كل ما فى الأمر أنى كنت أخشاك ، فحاولت تجنبك وتجاهلك ،

لقد ذقت الهوى مرة فى حياتى .. فما وجدت فيه غيز المرارة واللوعة ، وصممت على أن أحيا بلا حس ولا شعور ، وعندما لقيتك أول مرة أحسست فجأة بخفقة فى قلبى وعلمت حينئذ أنك من النوع الذى يجب أن أتحاشاه وأتجنبه ، ولقيتك خلف الربوة فحاولت أن أهرب منك ولكنك أصررت على مصاحبتى ، واستطعت يومئذ أن تملأنى نشوة ، فزاد بعدئذ خوفى منك ورغبتى فى الأبتعاد عنك فقد لدغت مرة من قبل ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ...

— إلا جحر الهوى والحب ! ... فسيان لديه المؤمن والكافر ولا يملك امرؤ لدغ منه مرة ، إلا أن يلدغ مرات مهما يبلغ حذره ويقظته .. ومن البله أن تفرى من الحب ، لا لشيء إلا لأنك أخفقت مرة .. فمثلك مثل الذى صادف فى طعامه حصاة فأقسم ألا يذوق طعاما حتى يتجنب الحصى ، إلى أن مات جوعا ... ! وإنه لخير لك أن تذوقى اللذة والألم من ألا تذوقى شيئاً .. لا ياصاحبتى الحياة سلسلة متع وآلام ، فان أضعت المتع ، خشية الآلام ، فكأنك ما حييت ...

— على أية حال .. إنى لا أرى هنالك محلا لفلسفتك ... لأن المرء لا يملك الفرار من الحب .. لأنه ما دام قد صادفه فلابد أن يسقط فى شراكه !

واستيقظ الفتى من نومه فجأة ، فقد سمع من حوله ضجيجاً ،

وفتح عينيه ، فاذا بجواد يمر أمامه كالريح ، وانتفض الفتى وحملق في الجواد الجامح ، فاذا به جواد الفتاة الأشقر ، وعلى ظهره صاحبته وقد ملأها الفزع ! .. ولم يضع الفتى لحظة واحدة ، فقد امتطى جواده ، ولم تمض دقائق حتى كان قد انقذ الفتاة من موت محقق .

وحمل الفتاة بين يديه ، وقد كان يجن من الفرح ، فلم يكن يخطر بباله أن يتحقق حلمه في مثل هذه السرعة .. ورأى نفسه يهمس في أذنيها بما همس به في الحلم ...

– ترى أتعودين إلى نسياني مرة أخرى !

وهمت الفتاة بالحديث ، فقاطعها قائلا :

– لا تقولي شيئاً ، فأنا أعرف ما ستقولين .

ودهشت الفتاة .. وحاولت الكلام ، ولكنه أسكتها بقبلة طويلة لم تعد الفتاة تنساه بعدها أبداً .

وصمتت آمنة عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفي الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب أنصت القوم فعاودت حديثها قائلة .

* * *

الليلة الرابعة

الصبي الفيلسوف

لا قيمة للخطيئة إلا بآثارها ... والغفران خير ماح للخطايا .. غاسل للذنوب ... وما قتل الذنب كالعفو عنه .

استحث الرجل بعيره ، وأخذ يجد فى السير بين الوهاد والآكام ، وقد لفه الليل بثوب حالك السواد .. وبدت الصحراء الواسعة أمامه ظلمات ، لايكاد يميز من خلالها أصبعه ، فلا فرق بين أن يكون المرء فيها بصيراً ، أو ضريراً ، وساد السكون ، إلا من عواء ذئب برح به السغب ، وشفه الظمأ ...

وعلى ضوء النجوم بدا وجه الرجل حزيناً متجهماً ، في لمحاته ذعر ، وفي قسماته أسى واكتئاب ، وقد انقبض صدره ، واضطرب فكره ، فأخذ يتمتم بين آونة وأخرى بكلمات غير مفهومة .

وكان الرجل يحتضن بإحدى يديه لفافة صغيرة ، ضمها إليه في رفق وإشفاق ، كأنه يخشى من أشباح الصحراء المتراقصة أمامه أن تختطفها منه .

وطافت برأس الرجل ذكريات أليمة ممضة ، وانتابته أفكار أشد حلكة من ليل الصحراء ، فملأ الغضب صدره ، وأكل قلبه ...

لقد كان الرجل ، منذ بضع سنين ، يعيش في متجره هانئاً سعيداً ، أسبغ الله عليه من نعمه ، وأفاض عليه من إحسانه وكان يرى الدنيا باسمة زاهرة ، لا عسر ولا شقاء ، ولا فقر ولا إملاق كل مافيها يحث على التسبيح بحمد الله .. زوجة وفية كاملة ، تسهر على راحته ، وتضنى نفسها في خدمته ، وابنة في ثغرها بسمة الحياة ، وفي عينيها يتلاشى كل وهم وعناء .. وربح وفير ، ورزق دائم لا مقطوع ولا ممنوع ...

وعبس الزمن لحظة .. اختطف فيها نصف روحه ، فقد أصيبت امرأته بداء لم يمهلها أياماً معدودات .. فعصف به الحزن ، وتملكه الجزع ، وأحس الرجل من بعدها فراغا كبيراً يشمل حياته ، وشعر بمنافذ الأمل تسد أمامه ، وبوجه الزمان يتجهم له ويعبس ...

ومرت الأيام ، فبدأ الجرح يندمل وأخذت يد النسيان تمحو اللوعة ، وتطفىء نيران الحزن والأسى ...

وعادت إلى الرجل سكينته وخف جزعه ، فقد أخذت فتاته تنمو وتزدهر ، وبدأت تفيض عليه من حياتها المتفجرة الفياضة فملأت عليه الفراغ ، وأضاعت ألم الوحدة والوحشة ...

وكانت الأيام قد بدأت تخلق من الفتاة فتنة للعيون ، وسحراً للأفئدة ، فصاغت منها أنثى بارعة الحسن ، رائعة الطلعة ، تتفجر منه الأنوثة ، ويصطخب فيها الشباب والجمال ...

وكان الرجل يخشى من جمال فتاته ، فقد كان جمالا محرقاً

ملتهباً ، كان يخشى أن تكون هى نفسها أول من يحترق به ، فقد كانت روح اللهو والمجون تسرى بين الناس سريان النار فى الهشيم وكان بيت كل مقتدر ذى مال أو جاه يعج بالفساد ، ويفيض بالفسق والفجور ....

كان الناس قد سقطوا فى حمأة الشهوات ، فأضاعوا حياتهم بين خمر وقيان ، وعبث ومجون ، وانصرفوا إلى اللذات ، وأغرقوا رؤوسهم في الكؤوس ... وكان الرجل يخشى على فتاته البريئة الطاهرة أن يصيبها شرورهم ، أو يلحق بها شرر من فجورهم ، فيحرق حياتها النضرة الزاهرة ، فأفرط فى العناية بها ، وابتعد بها عن ذلك الجو الخبيث المسموم .

وفى ذات يوم رغبت الفتاة فى الذهاب إلى حمام المدينة الكبير ، حيث تلتقى شهيرات النساء وفاتناتهن .. وكان الحمام فى ذلك الوقت أشبه ما يكون بمنتدى للسمر ، وسوقا للنزهة والتعارف ...

ورفض الرجل في بادىء الأمر أن يسمح لها بالذهاب ، ولكن الفتاة ألحت عليه ، واستعطفته قائلة : إنها تود أن ترى الحمام ولو مرة واحدة على سبيل العلم بالشيء ! ... وأخيرا لان الرجل فسمح لفتاته بالذهاب ، وأمر إحدى الخادمات العجائز بمرافقتها ، وأوصاها ألا تتركها لحظة واحدة .

وكان يقطن فى المدينة أمير .. عبد شهوة ، صريع غانية وكاس له بطانة من الماجنين العابثين الذين خلعوا عذارهم ، وأرسلوا للهو

عنانهم ، لاعمل لهم إلا إرسال الشباك لاصطياد الغيد ، ومد الأحابيل للإيقاع بالحسان ....

وكان للأمير برج عال يستطيع أن يرقب منه حمام المدينة ، فيمتع نفسه بمشاهدة الفتنة العارية ، والجمال المكشوف ، فكأنما كان البرج مقصورة فى الجنة ، وكأنما أقيمت نوافذه على الفردوس !

ففى ذات يوم جلس الأمير فى شرفة البرج مع مسخ من بطانته ، وأخذ يجول ببصره بين الأجسام التى بدت عن بعد عارية لاهية .

وفجأة شعر المسخ بيد الأمير تقبض على عنقه بعنف ، وصاح به فى دهشة وذهول :

– ترى من تكون هذه الفاتنة الجديدة ؟

ونظر المسخ .. فإذا بجسد يبدو من بعيد كأنه قد صيغ من مرمر .. وكأن خالقه قد وضع فيه كل ما يملك من مهارة وإبداع ، فجاء الجسد أعجوبة من أعاجيب الزمن !

ومن ذلك اليوم بدأ الأمير ينصب للفتاة حبائله ، ويجد فى أثر الصيد الجديد الوافر المكتنز ...

وسقطت الفتاة فى الشرك ، ومرت الأيام وأبوها لا يدرى عن الأمر شيئاً ، حتى أتى يوم لم يعد ينفع فيه الكتمان ، ولا يجدى فيه التكتم .. فقد حملت الفتاة .. وأوشكت أن تكون أماً !

وبات الرجل يئن من الخزى والعار ، وأحس أنه قد وصم وصمة لا تمحى أبد الدهر ، وخيل إليه أنه لايكاد يسير فى طريق . أو يجلس فى مجتمع ، حتى يدور الهمس حوله ، ويشير القوم إليه إشارات خفية : هذا هو الرجل الذى انتهك عرضه وثلم شرفه !

وفى ليله سوداء ، وضعت الفتاة ، وخرج الطفل إلى الحياة ليرى فى استقباله وجوهاً واجمة مكتئبة ، حزينة عابسة ، ويرى الدنيا خالية من الحنان ، جرداء من كل عطف وحب !

وأبى القدر إلا أن يمعن فى قسوته وسخريته ، فلم يشأ أن يعطى روحاً جديدة دون أن يأخذ عنها بديلا .. ذلك أن فتاته قد فاضت روحها بعد أن وضعت جنينها !

وجلس الرجل مكتئباً حزيناً ، يعتمد رأسه بين كفيه ، وقد هدت الصدمة قواه ، وسلبته رشده ...

وبين جنح الدجى لف الرجل رضيع فتاته ، وامتطى بعيراً أخذ يجد فى المسير به مبتعداً عن المدينة ، هارباً به عن موطن العار ، ومنبع الخزى والشنار .. وقد أقسم يميناً غير حانثة لينتقمن ممن حطم حياته ، وأذل نفسه ...

وهام الرجل على وجهه فى الصحراء ، وآوته إحدى قبائل البدو وأرضعت طفله من لبن الماعز ، ونشأ الطفل المسكين وقد تعود شظف العيش ، ومرارة الحياة ، ووجد نفسه غريباً فى هذه الدنيا فهو لايعرف فيها إلا ذلك الكهل العابس الحزين يدعوه أباه !

وكان الصبى كثيراً ما يسائل نفسه : ترى ماذا يخبىء الله وراء ذلك الأفق البعيد ، وخلف تلك الرمال المترامية الصفراء ! ألم يخلق الله فى هذه الدنيا سوى ذلك القفر الموحش والخراب البلقع ! لقد سمع من أبيه ذات مرة أنه سيعود إلى المدينة فى يوم ما ، فإن له حسابا مع رجل هناك ، ولابد له من أن يسويه ...

ترى لم لا يعجل بالذهاب ؟ لقد كان بالصبى شغف إلى رؤية المدينة ، ولهفة إلى مغادرة هذا المكان الموحش الحزين ...

وأتى اليوم الذى ينتظره الصبى بفارغ الصبر ، فقد خرج العجوز عن صمته الكئيب ، وأعلن عن عزمه الرحيل إلى المدينة . وكاد الصبى أن يطير من الفرح ، فقد أحس أخيراً أنه سينطلق من سجنه الموحش ، ويرتع فى دنيا زاهية زاهرة ...

وعاد الرجل إلى المدينة ، فإذا بكل ما فيها قد تغير وتبدل ، وجال فى شوارعها بملابسه الرثة ، ومنظره الزرى ، فأنكره الناس ولم يستطع أحد منهم أن يميز فى هذا المتسول العجوز المهدم ، ذلك التاجر الوجيه الأنيق .. وجاشت الذكرى فى فؤاد الرجل فتكأت منه القرح ، وأدت الجرح ، ومد الرجل كمه القذر يمسح به دمعة طفرت من عينيه ...

وتعود الناس أن يروا المتسول العجوز قد تربع فى مكان مختار أمام مسجد بجوار قصر الأمير ، وكثيراً ما كان الصبى يتسلل فى غفلة من الرجل ، فيلهو مع الصبية ، أو يسترق الخطى إلى القصر فيجول خفية فى حديقته ، ويسرق منها بعض الثمار .

وكان الصبى يبصر ما يرتع فيه أهل القصر من عز ورفاهية ... ويرى ما ينعم به ابن صاحبه من متع وللذائذ .. فيحس في نفسه ألم الفاقة ، وبؤس الحرمان ...

وفي ذات يوم أقبل على أبيه يسائله ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

— لم نحن فقراء يا أبتاه ، ولم لا نملك قصرا كهذا ؟

فأطرق العجوز لحظة ، ثم رفع رأسه فى هدوء وأجاب :

— هكذا خلقنا الله يا بنى ...

— ولم خلقنا الله هكذا ؟

— هذه حكمته ... !

وتردد الصبى برهة ، ثم قال :

— ولكن يا أبتاه لا أستطيع أن أجد فى ذلك أى حكمة ! فلم يعطيهم الله كل شيء .. ويحرمنا كل شيء .. ماذا كان عليه لو أعطانا بعض ما عندهم فأسعدنا ولم يشقهم ... ؟

— ليست السعادة فى المال يا بنى ، فان المال يفسد النفوس ، والفقر يطهرها وينقيها من الأدران ، فيكون نصيبنا الجنة ، ونصيبهم الجحيم .. لنا الآجلة ، ولهم العاجلة .. و « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ... ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا » ...

وصمت الصبي لحظة ، وقد بدا عليه التفكير العميق .. ثم عاد يتساءل في حزن :

— مساكين هؤلاء القوم ! ولكنني مع ذلك لم أتبين حكمته بعد ... لأنه لو كان قولك صحيحاً يا أبتاه فما ذنب هؤلاء الناس يعطيهم الله المال فيفسد نفوسهم ، ثم يلقى بهم إلى الجحيم .. ويذهب بنا إلى الجنة ؟ أما كان من الأفضل أن يعطينا بقدر ، ويعطيهم بقدر ، فلا يفسدنا ولا يفسدهم ، ويطفيء جحيمه ويذهب بنا جميعاً إلى الجنة ؟

وضاق العجوز ذرعاً بفلسفة الصبي ، ورغب أن يضع حداً للنقاش حتى لايقودهما إلى الكفر ، فأجاب الصبي :

— « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »

نعم يا بني ... بغير حساب ، فيجب أن نخضع لمشيئته ، ولا نتطاول إلى الجدل في حكمته ، ونحمده حتى على المكروه ..

— ولكني يا أبتاه لم أرك تحمده قط ، فأنت دائماً عابس مقطب ، لايفارق الحزن وجهك ، ولا تعرف الابتسامة طريقاً إلى شفتيك !

فنكس العجوز رأسه ، وقد عاودته الذكرى ، وملأه الشجن ، وتمتم في كلمات خافتة :

— يا بني لقد نكبت بما لم ينكب به أحد ، لقد كنت أكثر الناس مرحاً وابتساماً ، ولكن الزمن رزأني بما لو رزأ به أشد الناس تقوى لكفر بالله ....

وبدأ الرجل يقص قصته لحفيده في نبرات حزينة موجعة ، فلما انتهى رفع اليه الصبي عينين مغرورقتين ، وربت عليه بيده الصغيرة في عطف وحنان .. وبعد لحظة سكون بدأ حديثه :

— مسكين أنت يا أبتاه ، لشد ما أخطأت الطريق ، وحدت عن جادة الصواب ... لقد أضعت عمرك سدى في الهم والاكتئاب ، ما كان أولاك بدفن الماضي ونسيانه ، وأنت الذى جربت أن يد الزمن كفيلة ببرء الجرح ....

لقد سبق أن فجعت في امرأتك ... فمحت الأيام اللوعة ، وأطفأت الحزن ، ونمت ابنتك فملأت عليك الفراغ ، وأنستك امرأتك .... أما كان أجدر بك أن تصبر مرة أخرى ، فلا تفر إلى ذلك المكان المقفر الموحش ، ولا تلجأ إلى الوحدة والعزلة ، فتزيد في نفسك نيران الحزن والشقاء ! ... ألا تدرك أنك لو بقيت في متجرك ، لنسيت الوجيعة ، ولاستطعت أنا أن أملأ عليك الفراغ كما ملأته أمي من قبل ! ماذا كان يخيفك أن توصم بالعار ، والمدينة كلها غارقة في الخزى والعار ؟ ! ومن يدرى فقد يكون الأمير نفسه ابن خطيئة ، ووليد زلة .. وماذا يجديك الانتقام .. ولو قتلت الرجل لنقلت وزره إليك .. ألم تذكر لى أن الله سيلقى به في الجحيم .. فلم تحاول أن تلقى بنفسك في الجحيم . بدلا منه ؟ !

★ ★ ★

ومنذ هذا اليوم لم يعد أحد من الناس يرى المتسول وصبيه ، ورأى أهل الحى الذى كان يقطنه الرجل أنه قد عاد إليهم بعد طول غيبة ، وبدأ يعمل فى التجارة مرة أخرى ...

وفى زمن وجيز ارتفع الرجل ثانية .. واشتهر عن ذى قبل .. واستطاع الصبى بذكائه أن ينمى تجارة الرجل ، فيصبح بعد مدة من أثرياء المدينة .

وفى ذات يوم ، وقد جلس الرجل فى متجره الكبير ، أحس ضجيجاً فى الشارع ورأى الناس يصيحون ويهرولون ، وأبصر فى الجو لهباً ودخاناً ... واستجلى الأمر فأخبروه أن قصر الأمير قد شب فيه حريق أودى به وبساكنيه !

وعلم العجوز بعد ذلك أن الأمير قد نجا ، بعد أن شوهه الحريق ، ولكنه أصبح فقيراً ذليلا لايملك شروى نقير ، وعلم أنه قد اتخذ له مكاناً مختاراً بجوار المسجد ، يتسول فيه هو وابنه .. .

وأقبل الصبى على جده ذات يوم يسأله :

— ألم تسمع يا أبتاه قول الحكيم : « أقدر الناس عفواً من عفا عن قدرة » ؟

— نعم سمعته ..

— ألا يعجبك قوله ؟

— يعجبنى .

– فلم لاتعمل به ؟

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أن تعفو – وقد أصبحت ذا قدرة – عمن سبق أن أساء إليك .

أعفو عنه .. بعد كل ما أساء به إلى وإليك ؟ أعفو عنه بعد كل ما ارتكب من إثم وخطيئة .

– لقد كنت شريكه يا أبتاه فى الأثم والخطيئة .

– كيف ؟

– الخطيئة لا قيمة لها إلا بآثارها .. ولقد كنت أنت شريكه فى خطيئته بمضاعفة آثارها ... ولو كنت غفوراً رحيما .. لما تركت آثارها تستفحل وتتضاعف .... إن الغفران يا أبتاه خير ماح للخطايا ... غاسل للآثام .... ما قتل الذنب كالعفو عنه .

أطرق العجوز برهة ، وأخذ يردد فى صوت خافت « ما قتل الذنب كالعفو عنه .. وأقدر الناس عفوا من عفا عن قدرة » ثم رفع رأسه وضم الصبى إلى صدره ، وهمس فى أذنه :

– سأعمل به يابنى .

واختفى المتسول الجديد مرة أخرى ، وضم المتجر بعد ذلك الصبى الفيلسوف ، وجده وأباه وأخاه ! !

وصمتت آمنة عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب أنصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

* * *

الليلة الخامسة

حب وحرب

... وهكذا أوقع الملك بحبال حبه مالم يوقعه بحبال حربه ... والتقى بفتاته هامسا « فتكات لحظك أم سيوف أبيك » .

ظهرت بوادر الثورة فى البلاد وكانت الامبراطورية الغاصبة المحتلة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، إذ أخذت عوامل الهرم والشيخوخة تدب فى أعضاء جسمها المترامية الأطراف ....

وكان يقود الثورة فى البلاد رجل مجهول الأصل ، ظل يشق طريقه فى الجيش حتى بلغ رتبة عالية ، وقد لاحظ أن الإمبراطورية الغاصبة تتداعى وتنهار ، فأعلن العصيان ، وقرر الخروج على طاعتها ، ونادى بنفسه ملكا على البلاد ....

واستتب الأمر للملك ، فبدأ يفكر فى ضم الولايات المجاورة ، التى كانت تتبع مملكته قبل أن يخضعها الغاصبون المحتلون لحكمهم ... ومن ثم أخذ يراسل حكامها يأمرهم بالكف عن دفع الجزية ، ويطلب إليهم أن يعلنوا ولاءهم له ، وأن يبعثوا إليه بعدد من الجنود يضمهم إلى جيشه القوى ...

وقد أظهر الملك من قوة الشكيمة والجبروت مالم يستطع معه

أحد منهم أن يعصى له أمراً ، فخضعوا له جميعاً ، إلا أميراً واحداً ! ....

وكان ذلك الأمير شديد الاعتداد بنفسه ، فلم يخفه إنذار ، أو يرهبه وعيد .. وغضب الملك من ذلك الرجل الذى جرؤ على معصيته ، فكرر له الإنذار .. ولكنه لم يعبأ به ، وضرب بإنذاره عرض الحائط !

وعلم الأمير أن الملك لابد متبع إنذاره بهجوم لارحمة فيه ولا هوادة . فبدأ يتأهب للدفاع عن بلاده والذود عن عرينه ، ومضى يأخذ فى إعداد ذلك الحصن الكبير الذى سبق أن أنشأه ليقف عقبة كأداء فى سبيل الغزاة ..

ولم تكد تمضى أيام حتى حدث ما كان يتوقع .. فقد ظهرت طلائع الملك الغازى يثور من حولها الغبار ... وأخذت قواته تتدفق نحو الحصن ... ثم بدأ حصاره .

وكانت الحرب فى ذلك الحين تختلف كثيراً عنها فى هذه الأيام فقد كان المدافع يقبع داخل حصنه آمناً خلف الأسوار العالية .. وكان المهاجم يرابط بقواته حول الحصن .. لايكاد يفصله عن خصمه إلا مسافة ضئيلة تجعله آمنا من سهامه ، فكان المطل من نوافذ الحصن يستطيع أن يرى عدوه كأنه يطل على ملعب كرة ، كما كان فى استطاعة العدو أن يرى بسهولة كل ما يجرى فى الشرفات والنوافذ .

وبدأت المعركه أشد ما تكون هولا وعنفاً وتدفقت الجموع على أسوار الحصن المنيع ، ولكنها ارتدت عنه فاشلة خاسرة ... بعد أن صب عليهم المدافعون سيولا من الزيت المغلى ، فألهب أجسامهم وشوى جلودهم !

وصمد الملك للهزيمة ، وأخذ يضمد جراح جيشه ، ثم عاد يكرر الهجوم ولكنه كان يتجرع الهزيمة مرة بعد أخرى ... وارتد جنوده على أعقابهم خاسرين يجرون أذيال الخيبة والفشل .

ووجد نفسه عاجزاً ذليلا ، وهو الذى لم يخذله أحد من قبل .. وكان النصر حليفه فى كل معركه خاض غمارها .. حتى رماه القدر أمام تلك الأسوار التى كان يتخيل أن مجرد وصوله بجيشه سيجعل المدافعين فى داخلها يخرون أمامه سجداً .. ويطلبون إليه العفو والغفران على ما أبدوه من معصية دونها كل معصية ! .. ولكن أحلامه انهارت ، فصده القوم عن حصنهم ، وهزأوا به وسخروا منه ؛ حتى لقد كان يسمع بأذنيه رنين ضحكات السخرية منبعثاً من داخل الحصن ، ويرى بعينى رأسه استهجان نسائهم من الشرفات والنوافذ ...

ومرت الأيام طويلة مملة .. وهو لايفتأ يوجه هجماته الفاشلة من آن لآخر . وكان انتصار المدافعين يزيد من قوتهم ... ويشحذ من هممهم وأحس أمير الحصن اغتباطاً وسروراً بالغين ، فقد عرف

أنه بات بمنجاة من عدوه .. وأن ابنته الجميلة لن تقع فريسة فى يد الملك .. وأن قومه لن يصبحوا عبيداً أذلاء .

وكانت ابنة الأمير فتاة جميلة ساحرة .. فى عينيها فتنة ، وفى شفتيها إغراء ... وكانت قد تعودت أن تصعد كل يوم إلى شرفة عالية من شرفات الحصن .. لترقب رحى المعركه الدائرة . وتتسلى بمشاهدة ميدان القتال ...

وكثيراً ما كانت ترى الملك وهو يتجول فى ميدان المعركه وقد بدا طويل القامة ، مهيب المنظر .. فكانت تؤخذ بمرآه ، وتتمنى لو لم يكن عدواً لأبيها !

وفى ذات يوم هدأ القتال ، ووقفت الفتاة فى الشرفة كعادتها ترقب الميدان فاسترعى انتباهها أن الملك قد أخذ يقترب من الحصن مع بعض أعوانه ، حتى أصبحوا على قيد خطوات من السور الخارجى .

وذهلت الفتاة من جسارة الرجل وجرأته ، فقد كان تقدمه حتى هذا المكان يعرضه لسهام عدوه .. ولم تشك فى أن اقترابه لابد أن يكون لأمر جلل ....

ولكن عجبها اشتد حينما رأته يحملق ببصره فى الشرفة التى وقفت فيها حتى خيل اليها أن الأمر الجلل الذى عرض الرجل حياته للخطر من أجله .. قد لايكون سوى رغبته فى رؤيتها !

ولم تستطع الفتاة أن تحمل نفسها على أن تصدق أن هذا أمر

ممكن حدوثه .. وإن كانت أيضاً لم تستطع أن تمنع قلبها من أن يخفق بشدة وعنف ... وأنفاسها من أن تتابع بسرعة كأنها فرس سباق ... وأنظارها من أن تحدق في الرجل فلا تتحول عنه يمنة ولا يسرة .

ولما انصرف شعرت الفتاة بفراغ في نفسها وظلت تلاحقه ببصرها حتى اختفى .

وفي اليوم التالي صعدت إلى الشرفة في نفس الموعد .... وخفق قلبها بشدة حينما أبصرته وقد بكر في القدوم ... وكان في هذه المرة وحيداً لا يصطحبه أحد .

وشعرت الفتاة بالسرور يغمرها ... فلا شك أن الرجل يريدها هي ... ولا شيء سواها .. إنه يركب الصعب ، ولم يخاطر بحياته إلا ليحظى برؤيتها !

ووقف الرجل والفتاة مدة طويلة ... واجمين ساكنين ... وكل منهما يرقب الآخر من بعيد ... وأخيراً أقبل الليل فغادرت الفتاة الشرفة ، وانصرف الرجل ...

وأحست الفتاة أن رأسها يضطرب بما فيه ... وأنها تسير في طريق شائك وعر .. وإلا فكيف تبيح لنفسها أن تهوى ألد أعداء أبيها ؟

ولكن هل هي تهواه حقاً ! .... أهذا هو الهوى الذي يتحدثون عنه ! ترى لماذا يسخر منها القدر هذه السخرية التي لا مثيل لها ؟

لماذا يضطرها إلى حب رجل يجب ألا يستحق منها غير البغض والكراهية ؟

ولكنها لاتحبه ! ... هي فقط ترغب في رؤيته .. وربما كانت المسألة لا تعدو حب الاستطلاع .. فهو مخلوق عجيب يستحق الرؤية ؟ ... وعلى أيه حال ، ولكي تقطع الشك باليقين ، فستمتنع عن الصعود إلى الشرفة حتى لاتراه .

.. وظلت الفتاة تحاول إقناع نفسها بأنها بعيدة عن الحب ... وتقسم أنها لن تصعد إلى الشرفة ، حتى إذا حل الموعد ، كانت تقف فى الشرفة دون أن تدرى كيف صعدت .

وأطلت من الشرفة ، فإذا به يحمل قوساً وسهماً ... وقد بدا مفتول العضلات ممشوق القامة ، كأنه إله القوة ، وجذب قوسه وأرسل منه سهماً نحو الشرفة .. فسقط أمام قدميها ...

وتناولت الفتاة السهم ، فإذا برسالة اشتبكت به ... فقرأت ما بها ، وأحست أنها لم تقرأ فى حياتها أمتع ولا ألذ من هذه الكلمات القليلة التى حوتها الرسالة .

وفى اليوم التالي . عندما صعدت الفتاة إلى الشرفة ، لم تنس أن تأخذ معها قوساً وسهماً .. وأرسلت بهما رسالة ملؤها الحب والهيام ...

وولت الأيام والهوى يجرفها أمامه كما جرف غيرها من قبل ومن بعد .. وحدث بعد ذلك ما يحدث دائماً فى قصص الحب

وأساطير الغرام .. فقد قادهما الهوى إلى اللقاء رغم ما اعترض طريقه من صعاب وأخطار .

وكان الموقف شاذاً شديد الغرابة .. ففي النهار ، كان الرجل يجرع كأس الهزيمة المريرة وسط الجثث المكدسة خلف أسوار الحصن .. وفي الليل كان يرتشف كؤوس الهوى العذبة خلف نفس الأسوار ، عندما تتسلل اليه الفتاة ، فينعمان باللقاء .

وفي ذات ليلة مشؤومة سوداء ، نزلت النازلة .. وانقضت الصاعقة .. فقد افتضح أمر الملك العاشق .. والأميرة المستهامة وسرعان ما اجتمع قواده ، وقرروا أنه مجرم خائن يجب إعدامه ، وأنه السبب في الهزائم المتكررة التي قادهم اليها من أجل عشيقته ... أما الفتاة فقد سيقت إلى داخل الحصن ذليلة مهينة .. وقرر القوم أنها تلتقي بخصمهم لتفشي اليه بأسرارهم وأنها لا تستحق أن تعيش .

وسجن الملك ... ثم قيد إلى حيث يلقى حتفه ، وكان له تابع كهل شديد الإخلاص ... اشتهر بحكمته ورجاحة عقله ، فحز في نفسه أن يعدم سيده ، وعلم أن قومه لن يجدوا عوضاً عنه ... فطلب من القادة أن يتمهلوا قليلا ، وأن يستمعوا لرجائه ...

قال الرجل إن خير وسيلة لضم أملاك عدوهم وإخضاعه لطاعتهم ، أن يتزوج الملك من ابنة الأمير .. ما داموا قد فشلوا في إخضاعه بحد السيف ؟

وسخر منه القوم ، وأخبروه أن عدوهم ليس بالأبله الذى يرضى بذلك ولكن الكهل أقسم لهم أن الرجل سيقبل وطلب منهم التمهل قليلا فى إعدام الملك حتى يذهب فيعرض الأمر على عدوهم

وسار الكهل ، يصحبه جنديان يحملان راية بيضاء .. فأدخلوهم الحصن ، وذهبوا بهم إلى الأمير ...

وهنا رأى الكهل منظر عجيباً .. تقشعر منه النفوس .

كان القوم قد قرروا أن الأميرة خائنة وأنها لابد أن تلقى جزاءها فأتوا بها مجردة من الثياب ... وأحضروا جواداً ثائراً .. ثم أخذوا يربطون الأميرة من شعرها بحبل متين كى يشدوه إلى الجواد الثائر ، حتى إذا انطلق الجواد ، جر معه جسد الأميرة فحطمه ومزقه شر ممزق .

ورأى الكهل الأميرة وقد ركعت ، وبدأوا يربطون شعرها ... فعرف ما سيحدث ... مما وقف له شعر رأسه !

ونظر إلى الأمير .. فإذا بالرجل قد بدت عليه الصرامة والقسوة .. ولكن الكهل المحنك علم أنها صرامة مصطنعة ، وأن بالقلب ما به ، وأن فى جوف الأب نارا آكلة يخفيها بادعاء القسوة وصاح الكهل بالأمير أن يأمر بوقف ما يراد بابنته ، حتى يعرض عليه ما جاء من أجله .. ثم أخذ يعرض طلبه قائلا .

- أصلح الله الأمير ، وأطال بقاءه .. ماذا يريد أن يفعل بابنته

الحبيبة .. أحقاً يريد أن يوردها موارد العطب ويمثل بجسدها العزيز شر تمثيل ؟

– أجل .. إنها تستحق شراً من ذلك .

– ولم .

– لأنها خائنة غادره .

وماذا فعلت من ضروب الخيانة ؟

– أحبت عدوى وأفضت إليه بأسرارى .

– أما أنها أحبت عدوك .. فذلك ما لا ينكره أحد .. أما أنها أفضت بأسرارك فذلك ما لم يحدث ، والحب يا مولاى الأمير لم يدخله أحد قط فى ضروب الخيانة ... فكما أحبت هى الملك .. أحبها الملك .. وكان كلاهما صادق فى حبه مخلص فى هواه وليس أدل على ذلك من أنه يتقدم إليك بطلب زواجها ...

وخيل إلى الأمير أن الرجل غير جاد فى قوله .. فلم يستطع أن يصدق أذنيه .. أيمكن ذلك حقيقة ... هل يطلب الملك الزواج حقاً من ابنته . فينقذ حياتها .. بل ويجعلها ملكة متوجة ؟ ثم يسألونه إن كان يقبل أم لا يقبل .. لاشك أنهم مجانين ....!

وفك وثاق الأميرة ، وأسرع الكهل إلى قومه يزف اليهم البشرى ... وسرعان ما أطلق سراح الملك ، وعاد إلى عرشه .

وفى موكب عظيم ؛ دخل الحصن .. الحصن الذى استطاع

الحب أن يفتح أبوابه . بعد ما فشلت القوة الغشوم فى فتحها .

وأقيمت حفلات الزفاف ... فاختفت من الحصن أسلحة القتال .. وحلت محلها أسلحة ربات الحجال ... من رقص وغناء وأنها لعمرى أشد فتكا وأكثر مضاء ... وهكذا أوقع الملك بحبال حبه ، مالم يوقع بنبال حربه ... والتقى بفتاته هامساً فى أذنيها :

فتكات لحظك أم سيوف أبيك ...

* * *

وصمتت آمنه عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب أنصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

الليلة السادسة
الجبان

لقد دفعت الفتاة بالشجاعة فى نفسه ووجد فيها من الاقبال عليه والاعجاب به ما رفعه من هوة اليأس التى كان يتردى فيها .

كان الفتى ميالا للعزلة متبرماً بالحياة كارهاً للدنيا وأهلها ... وكان قومه يسمونه بالجبان ... وكان أكثر ما يؤلم الفتى فى هذه التسمية أن يحس أنه جبان فعلا .. ويشعر أن اسمه كان على مسمى فما ظلموه بما وصفوه وما تجنوا عليه بما نعتوه به .. بل هو الذى ظلم نفسه ووصمها تلك الوصمة السوداء ...

ولكنه كان يحس أحيانا أنه مظلوم لأنه لم يخلق نفسه ، ولو كان بيده الأمر ، لما جعل الجبن من صفاته ، ولكان أكثر جرأة وإقداماً ، ولوضع فى نفسه قدراً من الشجاعة يعادل كل ما فى نفوس الخلق أجمعين ، ولكن ما حيلته وقد أصابه الله بذلك المرض العجيب الذى أورثه الجبن وملأه خورا وضعفاً ؟

كان الفتى مصاباً بمرض « الهاموفيليا » وهو مرض يجعل دماءه تفتقر إلى ما يكون « الجلطة الدموية » ... فإذا أصابه جرح .. استمرت الدماء تسيل .. وتسيل ... كأنها السيل المتدفق .

ما ذنبه في ذلك الجبن .. وقد غرس في نفسه غرساً منذ الطفولة وما زال يذكر حتى الآن وجه أمه الحنون يملأه الفزع والارتياع عندما كانت تضبطه ممسكا بسكين أو زجاجة أو حتى إبرة صغيرة ... لقد كانت تعتبر مجرد إمساكه لتلك الأشياء جريمة لا تغتفر بل هو شروع في انتحار .. وكانوا يحرمون عليه حتى قطع الفاكهة .. ترى من أين إذاً تأتيه الشجاعة ؟

من أين تأتيه الشجاعة وهو ما زال يذكر ذلك اليوم الأغبر المشؤوم .. عندما كان يلهو مع بقية الأطفال .. وكان الصغار يتهمونه بالخور والضعف .. ويلقبونه « بالبنت » واستفزه اتهامهم فضرب بنصائح أمه عرض الحائط وأقبل عليهم يشترك في المعركة ، التي كانوا يمثلونها ... وانهمك في اللعب ونسي تحذير أمه ، وجرى الأطفال إلى إحدى الشجرات الضخمة فتسلقوها ليختبئوا بين أغصانها .. ولم يتردد هو في أن يتبعهم ... وتعلقت ملابسه بأحد الفروع فحاول أن يبعده عنه .. ولكن توازنه اختل فهوى إلى الأرض ...

ولم تكن السقطة في حد ذاتها بشيء يبعث على الخوف .. فكثيراً ما سقط غيره من الأطفال دون أن يصيبهم أذى .. ولكن شاء حظه أن تكون سقطته فوق حصاة مدببة الطرف .. فأصابت ساقه بجرح سالت منه الدماء .. ونظر الصبي إلى الدماء .. فأصابه هلع .. وانتابه خوف وجزع .. ولم يكن ذلك الهلع ناشئا عن خوفه من أن يظل جرحه ينزف حتى يموت .. فذلك شيء لم يكن تفكيره

الصغير يتطاول إليه .. بل كان هلعه ناشئاً عن خوفه من أن تراه أمه قد جرح نفسه فتؤذيه وتعاقبه .

ووضع الطفل يده الصغيرة على الجرح حتى تقف الدماء ، ولكنها كانت تنبثق كما تنبثق المياه من صنبور أو خرطوم .. ودار رأسه وأظلمت الدنيا فى وجهه ، وكان يخشى أن يراه بعض المارة من جيرانهم فيشى به إلى أمه ، فزحف على يديه حتى اختبأ خلف بعض الأعشاب فحجبته عن الأعين ...

وأصابته غشية ففقد وعيه ولم يعد يذكر مما حدث شيئا .. إذ فتح عينيه فوجد نفسه مستلقياً فى فراشه وقد أكبت عليه أمه بوجه شاحب ونظرات حائرة متلهفة وسمعها تتمتم بصلوات ودعوات .

وعلم الصبى بعدئذ أن زملاءه الصبية قد راعهم ما أصابه وأذهلهم منظر الدماء المتدفقة .. وحاولوا أن يضمدوا جرحه فذهبت جهودهم أدراج الرياح ورأوه قد أضحى أشبه بجثة هامدة فانطلقوا إلى أمه يحملون إليها النبأ .

وحملته أمه إلى الدار باكية منتحبة ... واستدعت الطبيب ولكنه كان أعجز من أن يفعل شيئا فقد كان الصبى على شفا حفرة من الموت لاينقذه منها إلا الله ولجأت أمه إلى الصلاة بنفس حزينة وتوسلت إلى الله أن يرده إليها ، فوهبها الله من لدنه رحمة واستجاب دعاءها وحدثت المعجزة الكبرى فإذا الدم ينقطع أخيرا وإذا الصبى يسترد أنفاسه وتعود إليه الحياة ...

وأحس الصبي بعد ذلك أن حياته متعلقة بخيط واه ، وشعر بالجبن يملأ نفسه وبالخور يسرى فى جوانحه ، وبدأ ينطوى على نفسه ويجنح إلى العزلة والوحدة ، ولم يعد شعوره بالخوف من أن يصيبه جرح ناتجاً عن تهديد أمه أو نصائحها بل أضحى منشؤه خوفا يعتمل فى جوفه ورعبا يسرى فى عروقه مسرى الدماء ..

وعلمته الوحدة بغض الناس والنفور منهم ، وعودته على الحزن والاكتئاب وكان شعوره بالنقص يحز فى نفسه ويخز قلبه بسهام مسممة ، حتى لقد كان يتمنى فى كثير من الأحيان لو كان مقعداً أو ضريراً ، فقد كان يشعر أنه خير للإنسان أن يصاب بعاهة فى الجسد بدلا من أن يصاب بعاهة في النفس أو فى الخلق ، فعاهة الجسد تبعث الناس على الرثاء لصاحبها والعطف عليه ، أما عاهة النفس أو نقص الخلق فلا يصيب صاحبهما غير الازدراء والاحتقار والبغض والنفور ، .مع أن كليهما لاذنب له فيما أصاب جسمه أو نفسه من نقص وتشويه ...

وكان بغض الفتى للحياة يزداد كلما تقدمت به الأيام وكان احساسه بالعجز يشتد كلما نما جسده وازدادت قوته وأخذت رجولته تكتمل ، وكان أكثر ما يحزنه أنه ليس لجبنه الظاهر علة ظاهرة ، بل على النقيض كان كلما اقترب من سن الفتوة ومرحلة الشباب ازداد تكوين جسده قوة وأصبح بنيانه أكثر متانة ....

واشتهر أمره وذاع صيته ، حتى لم يعد هناك من يجهل الرجل

الجبان ، ولم يكن هو فى استطاعته أن ينكر ذلك أو يثبت للناس عكسه ، إذ كان أشد الناس اقتناعاً بجبنه وخوره ، وكان الفتية يختالون بسيوفهم ومبارزاتهم ، ويخشى هو أن يمسك السكين ليقطع به برتقاله ، وكانوا سراعا إلى حومات الوغى وميادين القتال ، وهو قابع فى عقر داره فى استكانة ربات الحجال ..

وكان أحياناً يثور على نفسه وعلى استكانته وتخاذله ، ويصمم على أن يقهر ما فى جوفه من خور وجبن ، فيخرج إلى أول معمعة يخوض غمارها ويريهم من ضروب الشجاعة مالم تره عين أو تسمع به أذن فقد كان يشعر أن لديه القدرة على أن يفعل مالم يفعله سواه فهو أقوى منهم جميعاً وأشد بطشاً .

ولكن ، ماتكاد تحين الساعة حتى تضطرب جوانحه وتصطخب المشاعر فى نفسه ويصبح جوفه ميدانا لمعركه حامية بين مختلف الدوافع والنزعات ...

يذهب ، أو لا يذهب ، يقتحم الميدان غير هياب ، أم يكفى نفسه سوء المصير ...

ويلوح لناظره فترة من الوقت منظر يطير به على أجنحة السعادة .. فيرى نفسه على جواد أشهب بين صافنات الخيل وبريق السيوف والرماح .. وقد شمخ بأنفه حتى طاول السماء .. وبدأت المعركة فصال فيها وجال .. بل اندفع كأنه قذيفة من جهنم لاتبقى ولاتذر ...

ولا يطيق على ذلك صبراً فينتفض فى مكانه ويصر على ألا يتأخر بعد ذلك لحظة واحدة .. فإما المجد .. أو الموت .

وفجأة يلوح له منظر يصيبه برعدة توقف الدم فى عروقه .. إذ يبصر بعين الوهم صورته وهو صبى جريح ملقى تحت الشجرة وقد أخذت الدماء تسيل منه وتسيل .. حتى بدا كأنه غريق فى بحر من الدماء .. ثم منظره وهو راقد فى الفراش وقد حنت أمه عليه بوجهها الشاحب شحوب الموت وهى تهمس فى صوت خافت :

— اللهم انقذه بمعجزة من عندك .

ثم يرى نفسه وقد ارتمى وحيداً فى بقعة نائية بأرض المعركة والكل فى شغل شاغل عنه ، ويرى بذراعه جرحاً يدمى .. ويستمر الدم ينزف دون أن يتوقف ، ويحس بروحه تنطفىء كأنها ذبالة تخبو وهو ينتظر الرحمة ولا رحمة من حوله .. حتى وجه أمه الحنون قد افتقده فلم يجده .

وتنتهى المعركة التى تصطخب فى نفس الفتى بهذا المنظر ... فإذا بالشجاعة قد تطايرت من نفسه .. وإذا بالجبن قد عاد إليه فملك عليه مشاعره واستحكم فى قلبه وإذا به قد هبط إلى حيث كان من الاستكانة والذل فانزوى وانكمش وفاز من الغنيمة بالإياب .

ولم يكن جبن الفتى فى ميادين القتال وحومات الوغى بأقل من جبنه فى ميادين الهوى وحومات الغرام ولم يكن ذلك بالشىء

الغريب ، فقد أفقده جبنه في الأولى ثقته بنفسه ، فبات لايجرؤ على أن يقترب من الثانية ، وكان يشعر أن ما به من تخاذل وخور قد جعله سخرية الحسان وأسقطه من قائمة الرجال ، فأصابه اليأس وكفى نفسه مئونة التمني والتشوف ، ولم يحاول مرة أن يجازف بحب أو اشتهاء .

ولكن حدث ذات مرة — والفتى يجول في طرقات المدينة — أن أبصر جمعاً من الناس قد تكأكأ حول غجرية من النور تقوم ببعض رقصاتها العجيبة ، وقد أمسكت بيده عصا قد التفت حولها أفعى تشارك النورية في رقصاتها .

وكانت الفتاة ذات فتنة فتاكة صارخة وكان لقسمات وجهها وتكوين جسدها جاذبية تكاد تثير الذعر ، تماماً كتلك الأفعى التى حملتها بين يديها .

وحاول الفتى أن ينصرف إلى سبيله ولكن قدميه أعلنتا العصيان ، وأقسمتا ألا تتحركا من مكانهما قيد أنملة ، وحاول أن يحول عن الساحرة الغجرية بصره ولكن عينيه كانتا قد سمرتا في جسدها لاتبغيان عنها حولا .

والتقت العيون ، عيناها وعيناه ، فابتسمت الفتاة ، وابتسم الفتى ...

ابتسمت الفتاة له دون سائر الجمع ، وخصته وحده بالرضى والعطف ، وابتسم الفتى ، ولكن كانت في ابتسامته مرارة أليمة ،

لقد خدعت فيه الفتاة ، وغرها منه مظهره ، والمظهر خداع غرار ولقد كان للفتاة عذرها ، فلا شك أنها غريبة عن المدينة ، وأن سمعته الشائنة لم تصل آذانها بعد ...

ترى أليس خيراً له أن ينصرف قبل أن تعرفه الفتاة ؟ أليس آمن له أن « يزوغ » حاملا معه تلك الابتسامة التى خلعتها عليه الفتاة قبل أن تعرف ما خفى من أمره فتسترد ما وهبت .

وأقنع الفتى نفسه بذلك ، وهم بالانصراف ، أو على الأصح — بالفرار — ولكن الفتاة كانت قد انتهت من رقصتها . فجاذبته الحديث ، وكانت الفتاة لطيفة المعشر حلوة الكلام ، فنال كل منهما من قلب صاحبه ، وحدث تآلف وانسجام ، فافترقا إلى لقاء ...

ووجد الفتى نفسه يندفع فى الهوى ونسى كل شىء عدا فتاته الغجرية الساحرة ، وأحس أن ذلك الشعور بالنقص قد تلاشى فى نفسه ، بعد أن ملأه حب الفتاة له ثقة وأملا ، ولم يعد يخشى أن يتهم بالجبن فقد تناسى ذلك المرض الذى به والذى يجعل دماءه لاتجمد وصمم على ألا يكون جبانا بعد ذلك ..

لقد دفعت الفتاة بالشجاعة فى نفسه ، ووجد فيها من الإقبال عليه والاعجاب به ما رفعه من هوة اليأس السحيقة التى كان يتردى فيها .

وجلس الاثنان ذات يوم بمنأى عن الناس فى روضة قد خلت إلا من بلبل صداح وورقاء هاتفة وغصن منثنى وزهرة فياحة متمايلة .

وهتف الفتى بصاحبته وقد احتوى كفيها بين كفيه ورنا إلى عينيها بعينيه .

– انى أحبك .

– وأنا أعبدك .

– وأريدك أن تصبحى زوجة لى .

– زوجة لك ؟ أنا ؟ .. الغجرية الضالة التى لا مأوى لها .

– سأجعل مأواى مأواك .. إنك خير عندى من ملكة متوجة . ولكن هل ترضين أنت بى ؟

– أرضى بك ؟ .. لست أرضى فقط .. بل أتلهف وأتمنى . ترضين بى على كل مابى .

– ماذا بك ؟ إنى لا أرى بك إلا كل حسن ... إنك خير الرجال .

– وتردد برهة وهم يقول لها ما به ولكن لسانه جمد فى فيه وتوقفت الكلمات على شفتيه ... لا ... لا ... أنه لا يجب ... أنه يكره أن يفقد أعز ما أمتلك .

واتفق الاثنان على الزواج ، وتمت مراسيم الزواج وانتهى الاحتفال بالزفاف وذهب الفتى إلى حجرة عروسه الحسناء ، ولكنه ما كاد يرى عروسه فى خدرها حتى تسمرت قدماه وجحظت عيناه ، لقد رأى على الفراش بجوار عروسه ، تلك الأفعى التى كانت تحملها بين يديها يوم رآها ترقص لأول مرة ، وشعر بالدماء تجرى باردة فى عروقه ، وعاوده داؤه القديم وملأ الجبن قلبه ...

هذه الأفعى الكريهة ، ما عليها إلا أن تفتح فاها ثم تغرس أنيابها فى جسده ، فيكون فى ذلك حتفه ، لاضرورة لأن تكون سامة ، ولا ضرورة لأن يكون الجرح عميقا ، فأى خدش من أنيابها حتى ولو على سبيل « الهزار » سيكفى لجعل دمائه تسيل حتى تنصب عروقه منها ، دون أن يستطيع كائن من كان أن يوقف نزيفها .

ووجد نفسه يتراجع وشعر بقدمه تعودان به من حيث أتى ، وفى إحدى الحجرات جلس وحيدا وقد دفن رأسه فى راحتيه .

ياللذلة وياللعار ، أيفر من عروسه فى ليلة الزفاف ؟ ولكن ماذا يستطيع أن يفعل سوى ذلك وهذه الأفعى اللعينة ترقد إلى جوارها ؟ ترى ماذا ستظن الفتاة به ؟ وبماذا يستطيع أن يعتذر لها ؟ بل كيف يستطيع العودة إليها . والأفعى الخبيثة ما زالت قابعة فى مكانها ؟ .

وأحس الفتى أن الحياة لا تحتمل ... وشعر أن خيراً له أن يموت بدلا من أن يظل طول حياته ذليلا من خشية الموت ولم يكن الموت بالشيء المتعذر عليه فما عليه إلا أن يخدش نفسه خدشاً بسيطاً

لن يؤلمه أو يوجعه ، ثم ينتظر ، ولا شئ بعد ذلك فستسيل دماؤه حتى يموت ....

ولم يبطىء الفتى فى تنفيذ ما عقد نيته ، وبعد لحظة بسيطة ، كان يرقد في سكون والدماء تسيل من ذراعه ببطء ، ولكن باستمرار وبلا توقف ، حتى ملأت أرض الحجرة .

وأحس الفتى بالضعف ينتابه ، فأغمض عينيه ، ولكنه شعر بباب الحجرة يفتح وبفتاته الحبيبة تطل عليه وقد أصابتها الدهشة .

وقص عليها الفتى حقيقة الأمر ، وأفرغ لها كل ما فى نفسه ، وصاحت الفتاة فى ذهول وارتياع ...

— لِمَ لمْ تخبرنى من قبل ، لِمَ تركت نفسك تتعذب وتشقى . وعندى الترياق ؟ .

— وأجابها الفتى بصوت خافت ضعيف :

— إن مابى لاترياق له .

— زور وبهتان ، من قال لك هذا ؟ إنه ما من شىء إلا وله ترياق . هذه الأفعى التى ظننت فيها هلاكك تحمل لك فى أنيابها الترياق . إن فى سمها مادة عجيبة تجعل الدم يجمد فى سرعة البرق فما يكاد يسرى فى الدماء ، حتى يجعلها تجمد فى العروق ، فلو وضعنا منه قطرة مخففة على جرحك ، فلاشك أنه سيقف سيل الدماء .

وغابت الفتاة لحظة ثم عادت بأفعاها وقالت للفتى بصوت تملؤه الرحمة :

– دعني أجرب هذه القطرة من السم المخفف ، ستعيدك إلى وستعيدك إلى نفسك وشجاعتك ، فتكون خير الرجال .

ورأى الفتى المعجزة تحدث . وانقطع سيل الدماء . وأحس بالحياة تدب في جسده . ورأى الفتاة تحنو عليه بوجه يملؤه الحب والحنان . وخيل إليه أنه يلمح منه عطف أمه وحنانها ، واقتربت رأسها من رأسه وشعر بها تمسح وجهه بوجهها فى رفق ، وأحس بدمعتين حارتين تسيلان من عينيها على جبينه .

وعجب الناس بعد تحول الجبان فأضحى شيخ الشجعان ، فما حدث بعد ذلك معمعة إلا والفتى فارسها المغوار وبطلها الجبار .

وصمتت آمنه عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب انصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

★ ★ ★

الليلة السابعة
الطاووس

هذا الطاووس البديع الذى يبهر انظارنا بجماله وفتنته ما رأيت أشد منه حماقة وغباء ولا أكثر منه غرورا وكبرياء اللهم إلا الإنسان نفسه .

.. منذ بضع مئات من السنين قبل الميلاد ، وفى يوم من أيام الشتاء الدافئة ، التى تسطع فيها الشمس على الكائنات فتبدد ما يعتريها من برودة وجمود ، وتجعل المرء يحس أن دماءه تجرى حارة فى عروقه بعد طول ركود .. كانت مركبة امبراطور الفرس تتهادى فى الطريق المنحدر خارج المدينة ، وقد بدأ كل ما فيها براقاً لامعاً ، وكانت الجياد الذهبية الشعر تكاد تثب من فرط القوة والنشاط ..

واضطجع الامبراطور داخل المركبة المكشوفة ، يستمتع بأشعة الشمس الدافئة ، وقد بدا عليه الهدوء والسكينة وامتد بصره إلى الأفق البعيد ، حيث كانت تبدو بعض السحب البيضاء الخفيفة ، وهى تذوب فى زرقة السماء .

كانت تجلس إلى جوار الامبراطور ابنته الحسناء الصغيرة ،وهى تعبث بكرة ذهبية عليها بعض النقوش ، وكانت لاتفتأ تقطع عليه

حبل تفكيره بين آونة وأخرى ، ببعض الأسئلة التافهة ، فيجيبها الرجل في عطف وحنان ..

وظهر على جانب الطريق كوخ يقوم على ربوة عالية ، وكان على بساطته يبدو جميلا أنيقاً ، وقد أحيط بالشجيرات المورقة الخضراء ، والزهور الملونة المنمقة ...

وحينما اقتربت المركبة من الكوخ ، جذبت الصبية أباها من يده ، وطلبت إليه أن يأمر سائق المركبة بالتمهل ، فقد كانت ترغب في رؤية الكوخ وأصحابه ..

وتردد الرجل قليلا ، ولكنه لم يلبث أن أمر السائق بالوقوف ، فقفزت الصبية إلى الأرض تعدو نحو الكوخ ، واقتفى الامبراطور أثرها !

ونفذ الرجل وابنته من السور الخارجي الذى كان يحيط بالكوخ ، فرأى أمامه منظراً طريفاً أثار دهشته .

كان هناك رجل كهل يجلس أمام الكوخ ، وقد أحاطت به مجموعة عجيبة من الحيوانات والطيور بدت عليها السكينة كأنها في عقر دارها آمنة مطمئنة .. وقد تمدد بعضها يتثاءب تحت أشعة الشمس ، وأخذ البعض الآخر يتجول في بطء وسكون بين الأشجار المنتشرة حول الكوخ .. في حين راح الكهل يغمض عينيه ، ويستسلم لإغفاءة ممتعة لذيذة !

وعجب الامبراطور لهذا الخليط العجيب من الكائنات الحية التى ائتلفت واطمأنت نفوسها كأنها أسرة واحدة ...

وأدخل هذا المنظر السرور إلى قلب الصبية فبدت على وجهها مظاهر الغبطة والابتهاج ، وانطلقت تعدو بينها فرحة ضاحكة ...

ونبح كلب .. فأيقظ نباحه الكهل من غفوته ، وفتح عينيه ببطء ، ونظر حوله فإذا بالامبراطور على قيد خطوات منه !

وبدرت من الرجل صيحة دهشة ، ثم تمالك نفسه وانحنى أمام الامبراطور وقد بدت عليه مظاهر الفرح والسرور .

وجلس الامبراطور ، وأمر الرجل بالجلوس إلى جواره ، وطلب إليه أن يكف عن الاحترام والتبجيل ، وأن يرفع « الكلفة » بينهما ، ويحدثه حديث الصديق إلى الصديق ...

ونظر الامبراطور حوله في دهشة وهو يسأل الرجل :

– ماذا تصنع هذه المخلوقات فى دارك ؟

– تؤنس وحشتى ، وتعلمنى ماليس لى به علم ..

– تعلمك ما ليس لك به علم ! أبعد طول العمر ، ومشيب اللمة تعلمك المخلوقات البكماء ما ليس لك به علم ! قد أصدق أن فى وجودها إيناساً لوحشتك ، وإن كان فى ذلك بعض الشذوذ ... أما أنها تعلمك ماليس لك به علم ، فذلك معناه أنك إما مجنون ، وإما جاهل ليس له علم بشيء أبداً !

— لاهذا ولاذاك يا مولاى .. هذه المخلوقات مدرسة كبرى .. هى رعية تعلمك كيف تحكم رعيتك وتسوسها هنا تجد المكر والدهاء ، والختل والرياء .. هنا الحمق والغباء ، والفطنة والذكاء .. هنا تجد الأحمق المأفون ، والغر المفتون .. هنا ذو العقل والحجا والأبله المجنون .. هنا الفضيلة والرذيلة والخير والشر ... إن فلسفة الحيوان فلسفة عجيبة يامولاى ، ونحن أكثر المخلوقات بها ، إننا نتخذ جهلا الكلب والحمار والتيس نعوت سب تقذف بها الردئ منا .. ولو درينا لعلمنا أننا قلبنا الآية ، وعكسنا الوضع .. وأنه خير لنا لو اتبعنا قول الشاعر :

أنت كالكلب فى الحفاظ على الود وكالتيس فى قراع الخطوب

أترى هذا الحمار الواقف هناك فى سكينة وخشوع .. إنه خير ماعندى من الحيوان ! .. ما رأيت أشد منه صبراً على المكروه ، ولا تحملا للأذى .. لا أكثر منه طوعاً ، ولا أسلس منه قياداً ! كله فضائل ومحاسن .. ومع ذلك لو قلت لك يا مولاى إنك حمار .. لأمرت بإعدامى فى الحال !

ولم يتمالك الامبراطور نفسه من الضحك ، ولكن الرجل استمر فى حديثه جاداً كل الجد وهو يقول : وهذا الكلب الراقد هناك ، ما رأيت أكثر منه أمانة ، ولا أشد إخلاصاً .. أما هذه الهرة الجميلة يا مولاى ، والتى نأبى إلا أن نصف بها كل محبوب لدينا ، فملؤها الشر والأذى ! ظاهرها ناعم جميل وباطنها الغدر والخيانة .. وهذا

الطاووس البديع الذى يبهر أنظارنا بجماله وفتنته ما رأيت أشد منه حماقة وغباء ، ولا أكثر منه غروراً وكبرياء ، اللهم إلا الإنسان نفسه !

وظل الرجل بالامبراطور يصف له مجموعته حيواناً بعد حيوان ، ولم يكد يأتى على آخرها ، حتى سمع صفير عال من بين الأشجار ، فقال الكهل :

– وهذا يامولاى هو الذى جمع كل ما فى هؤلاء من فضائل ورذائل ... هذا هو ابنى الوحيد ، وكل ما تبقى لى فى هذه الدنيا من بنى الانسان !

وظهر من بين الأشجار صبى أسمر الوجه ، حلو التقاطيع ، فى نحو الثانية عشرة من عمره ، وقد أقبل يعدو راقصاً ... وكان وجود الفتاة فى الحديقة أول مالفت نظره ، فهجم عليها ، واحتضنها ، وانهال عليها تقبيلا غير عابئ بشئ !

وصاح به أبوه ينهره ؛ فترك الصبية وأقبل نحوه ، وحينما أبلغه أن ضيفهم العظيم هو الامبراطور .... صاح الصبى :

– الامبراطور نفسه ! يا للعجيب ! لقد كنت أتمنى أن أراه وأفقد نصف عمرى !

وأقبل الفتى يدور حول الامبراطور كأنه شيء عجيب !

ونهره أبوه للمرة الثانية ، وأمره أن يكف عن هذا الحمق ..

ولكن الامبراطور أعجب بالصبى ، فربت على كتفه ، وقال للكهل :

— حقاً ، إن هذا الفتى خير ماعندك ..

وعندما هم الامبراطور بالانصراف ، أبدت الصبية رغبتها فى أن تمسك بالطاووس ، فضحك الصبى ساخراً ، وهنا سأله الامبراطور :

— ماذا يضحكك يابنى ؟ !

— لاشئ يا مولاى .. هرة حمقاء أعجبها طاووس أبله مفتون هذا ما يحدث دائماً .. كنت أود لو اختارت خيراً من الطاووس .. ولكنها حمقاء يا مولاى ... فلنعطها ما تشاء !

وانصرف الامبراطور عائداً إلى قصره ..

وفى اليوم التالى أمر الكهل ابنه أن يحمل الطاووس ، ويذهب به إلى قصر الامبراطور ، ويلتمس منه قبوله هدية لابنته ، لتنازلهما بتشريف كوخه الحقير .

ولكن الصبى صاح :

— لن أقول كوخنا الحقير ، لأنه ليس بحقير !

— دعنى واذهب . وقل ماتشاء .. فليس لدى وقت لإضاعته معك ..

وحمل الصبى الطاووس ، وأخذ يعدو حتى وصل إلى قصر

الامبراطور ، وتسلل من الباب فى غفلة من الحراس .. وأخذ يتخبط على غير هدى فى دهاليز القصر وسراديبه ، يبغى الوصول إلى الامبراطور دون أن يتنبه إليه أحد أو يعيره أى اهتمام ...

وسمع الصبى أصواتاً تتهامس فى إحدى الغرف التى مر بها ، فوقف برهة وأنصت .. فسمع ما أثار عجبه ، وما غفر منه فاه دهشة !

كان المتهامسون يتآمرون على اغتيال الامبراطور ، وكانوا يدبرون الأمر ، ويحكمون الخطط ... ولم يستطع الفتى أن يصدق أذنيه فى بادئ الأمر ، ولكنه حينما سمع بقية الحديث ، زال كل شك من نفسه ..

وخشى الصبى ، إذا رآه أحد فى هذه الناحية من القصر ، أو عرف القوم المتآمرون أنه سمع حديثهم ، أن يكون فى ذلك حتفه فأخذ يعدو بسرعة حتى ابتعد عن الحجرة وسأل أول من صادفه عن الامبراطور ، فقاده الرجل إلى جناح آخر وهناك أوصله إلى غرفة الامبراطور ...

ورأى الامبراطور الصبى ، فرحب به ، وهش له ، وأمر أن يأخذوا الطاووس إلى حجرة الأميرة ، وأمر له ببعض المال فأبى الصبى وسأله الامبراطور :

– كيف حال أصدقاء أبيك ومعلميه ؟ !

– كلهم بخير يا مولاى .. وعندى رسالة من أحدهم ، كلفنى أن أوصلها إليك .

وقهقه الامبراطور ، وظن أن الصبى يريد المزاح فقال له :

– هاتها !

– لا أستطيع أن أقولها إلا لمولاى وحده .

وهنا أمره بالاقتراب ، فتقدم الصبى وهمس فى أذنه قائلا :

– لقد رأى الجرو الصغير بعض الثعالب والذئاب فى عرين الأسد تتآمر على الفتك به .

وصمت الامبراطور لحظة ، ثم بدأ يفهم ما يعنى الصبى ، فبدت على وجهه علامات الدهشة ، وسأل الصبى :

– أحقاً ماتقول ؟

– إن الجرو الصغير لايكذب قط ..

وأمر الامبراطور الحاضرين بالانصراف ، واختلى بالفتى . فأخذ يفسر له الأمر وينبئه بجلية الخبر ...

واستمع الامبراطور إلى حديث الصبي فى دهشة وذهول وعندما انتهى منه أمره بحمل الطاووس إلى الأميرة والعودة إلى أبيه .

وحمل الصبى الطاووس إلى حجرة الأميرة ثم عاد إلى داره .

واستطاع الامبراطور أن يحبط المؤامرة وأن يفتك بأصحابها . وذهب بعد ذلك إلى الكهل ، فأخبره أن ابنه قد أنقذ حياته وأنه

عاجز عن إيفائه حقه ، وطلب إليه أن يسأله ما يريد ... ولكن الكهل أخبره أنه ليس فى حاجة إلى شىء ، وأنه قانع بما هو فيه .. فطلب منه الامبراطور أن يسمح له بأخذ ابنه ليعيش معه فى القصر ، فتردد الرجل قليلا ، ولكنه اشترط أن يحضر إليه مرة كل أسبوع حتى لاينسى أباه وإخوته من الحيوانات ...

وذهب الصبى إلى القصر ، ودارت عجلة الزمن ، فإذا به قد أصبح شاباً يافعاً ، واستطاع بذكائه وفطنته أن يتدرج فى مناصب القصر ، حتى بلغ مرتبة رفيعة فى زمن وجيز ، وكان محل ثقة الامبراطور وموضع سره ..

وكان كل ما حول الشاب ينبئ بأنه سعيد قرير العين ... ومع ذلك فقد كانت فى قلبه لوعة ، وفى فؤاده هم وأسى ... كان الفتى يحب الأميرة التى أصبحت هى الأخرى فتاة تفيض بالأنوثة ، ويشع منها السحر والجمال .. وكانت الأميرة معرضة عنه ، منصرفة إلى فتى من النبلاء ، عذب الحديث ، معسول الكلام ، منمق الهيئة جميل المنظر . وكانت معاملتها لصاحبنا يشوبها بعض الازدراء والاحتقار ، لشعورها بأنه فتى — مهما يكن سمو مركزه وعلو مرتبته ، من أصل غير نبيل .

وفى ذات يوم حاول الفتى أن يبثها حبه ، فصدته بعنف وقحة ، وشعر بالصدمة توجع قلبه ، فقال لها مطرقاً ، وصوته يفيض بالألم والغضب :

– هذا الطاووس الأحمق المغرور ، قد فتنك وأنت صبية غريرة .. واليوم يفتنك الطاووس الآدمي وأنت فتاة حمقاء ، يالك من هرة مخدوعة مفتونة .

وردت عليه الفتاة بصوت ملؤه السخرية :

– ذلك الطاووس الذى تصفه بالحمق والغرور ، خير من كلب حقير الأصل ، وضيع المنبت .

وشعر الفتى أن الفتاة قد طعنته بخنجر مسموم ، فانسحب من الحجرة فى صمت وسكون ، دون أن ينبس ببنت شفة .

وأحس الفتى أنه غريب فى القصر ، وعلت عينيه غشاوة من دمعتين حبيستين . وشعر بالحنين إلى كوخ أبيه .. فخرج إلى الطريق يضرب على غير هدى ، حتى وصل إلى الكوخ ...

وربت أبوه على كتفه برفق وقال له هامساً :

– كل شىء يفيد فيه النصح إلا هذا الأمر .. هذا المرض المسمى بالحب هو داء عضال ، لا تقى منه دروس الغير .. فالانسان دائماً يريد امرأة ، ويشقى فى طلبها ، فإما أن يفشل فى الحصول عليها فيزيد شقاؤه ، وإما أن ينالها فيفقد رغبته فيها ، ويطلب امرأة أخرى .. وتستمر الحلقة ، ويستمر الشقاء .... لاتخبرنى أن فتاتك نسيج وحدها ... فكلهن يظهرن كذلك إذا ما سلط عليهن مصباح الحب ، دع مصباح الحب الذى فى قلبك ينطفىء ، أو حول نوره إلى امرأة أخرى، ترى فتاتك جرداء من كل سحر ، عارية من كل فتنة .

وأحس الفتى ببعض العزاء وسط حيوانات أبيه .. وأرسل الامبراطور فى طلبه ، فادعى المرض ؛ وكانت الفتاة قد أحست بقسوتها نحو الفتى ، فأصابها الندم ، وشعرت بالحنين إلى عودته ، وبدأت ترى تفاهة ذلك الفتى النبيل الأجوف ، الذى خيل إليها أنها تعشقه ، وأدركت أن كل ما فيه سخيف مزيف .. ونظرت إلى الطاووس الذى كان يفتنها وهى صبية فاحتقرته ، ورأت أنه لايفعل شيئاً إلا الاختيال والزهو ، فصاحت بأحد الخدم ، وأمرته أن يعيد الطاووس إلى كوخ الكهل .. وقبل أن ينصرف الخادم قالت له بصوت حزين متئد :

— أخبر صاحبه أن الهرة الحمقاء لم تعد حمقاء ، وأن الطاووس الغر المفتون ، لم يعد يفتنها ، وأنها تفضل عليه الكلب مهما يكن من أصله ومنبته .. فهل يسمح الكلب بالعودة إلى القصر ؟

وذهب الخادم ، وأبلغ رسالة سيدته فكاد الكهل أن يستلقى على قفاه من فرط الضحك ، وقال لفتاة : أسرع أيها الكلب إلى هرتك قبل أن تعود إلى حمقها ..

وعاد الفتى إلى القصر ، وعقد قرانه على الفتاة !

وفى ليلة الزفاف ، حضر الكهل إلى القصر لأول مرة ، وقد حمل فى يده لفافة كبيرة ، هى هديته إلى العروس ، وكانت عباءة حريرية بديعة الصنع مزينة برسوم جميلة على شكل طاووس ؟

ووقفت الفتاة تختال أمام الكهل بالعباءة الجميلة ، وبدا الاغتباط على وجهه فقال لها ضاحكا :

– يا هرتى الصغيرة ، غير الحمقاء هذا كل ما يصلح له الطاووس ، الزينة والزركشة ، أما كلبك المخلص الأمين ، فهو الذى يحمل لك فى قلبه كل عطف وحب ، ويستطيع أن يدفع عنك الأذى ويقيك الشرور ؟

كنت معذورة يا أبتاه .. فالمظهر غرار خداع وما من إنسان إلا ويفتنه الكساء المزركش والقشرة البراقة . إن العين قد يبهرها ولكن القلب لايخدع بالطلاء ولا يستقر على زبد يذهب جفاء ..

* * *

- وصمتت آمنة عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب أنصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

الليلة الثامنة

قد تنفع الذكرى

الدموع مطافىء الحزن ورب
جمرة فى الفؤاد لاتطفئها إلا عبرة .

كان « الفشل » هو أبغض شئ فى الحياة إلى نفسها .. وقد يكون من الخطأ أن تحاول تمييز امرئ ما بشدة بغضه للفشل .. لأنه ما من إنسان فى هذه الحياة يحب الفشل أو يرغب فيه .. فهو شيء يضطر إليه اضطراراً ، ونتيجة لابد أن يقبلها المرء مكرهاً لا مختاراً .

ولكن بغض الفشل والخوف منه – رغم أنه صفة يتصف بها كل إنسان – كان بالنسبة إليها شيئاً مميزاً حقاً .. بل أكثر الأشياء تأثيراً فى مجرى حياتها .. كانت الفتاة تهـوى النجاح .. ولم تكن المزايا والفوائد التى تحصل عليها من النجاح هى التى تستهويها .. بل كان أكثر ما يستهويها ويملأ نفسها غبطة هو ذلك الشعور الذى يملؤها عندما تتلقى إعجاب الناس وتقديرهم عقب نجاحها فى أمر ما .. وكان أكثر ما سعدها هو أن تشعر أن الناس يغبطونها ويحسدونها وكذلك كانت الفتاة يروعها الفشل .. لا لأنها تخشى عواقبه – إذ لم يكن تفكيرها السطحى ليمتد إلى العواقب والنتائج – بل لأنها تخشى رثاء الناس وعطفهم .

كانت تهوى الرسم .. وكانت فنانة ماهرة ، ولكنها لم تعرض لوحاتها قط خشية أن يصيبها الفشل .. وكانت تكره أن يراها الناس مريضة . وكانت حين تنظر إلى المرآة تحمد الله على أن منحها تلك الهبة من الجمال .. وتشعر أنها لو لم تكن على ذلك القدر من الفتنة لفضلت ألا تكون بالمرة .. وأنه خير لها أن تموت من أن تعيش دون أن تتلقى آيات الإعجاب ودلائل الاستحسان التي كانت تفعل في نفسها فعل السحر . رغم أنها كانت تبدى قلة الاكتراث بها .

وبدأ خوفها من الفشل .. يخط أول آثاره في حياتها عندما اكتملت أنوثتها ، وكثر حولها المعجبون والعشاق وطلاب الزواج ، وكانت الفتاة تشعر بخطورة تلك الخطوة التي كانت على وشك أن تخطوها ...

وكانت تعلم أن فشلها في هذه الخطوه يعني الفشل الأكبر .. وأن عليها الآن إما أن تضع نفسها موضع الغبطة أبد الدهر ... أو تكون موضع رثاء وعطف مدى الحياة ...

ومرت الأيام والأشهر والسنون ... والفتاة لم تخط خطوتها بعد .. وطال الانتظار بالمعجبين والعشاق وطلاب الزواج ، حتى أصابهم الملل فبدءوا ينفضون والفتاة غير مكترثة ولا عابئة ..

وتلفتت حولها فإذا بصاحباتها من الفتيات .. لم يصبحن بعد فتيات .. بل زوجات وأمهات وهي هي .. صبية من صبيات المدارس مرحة لاهية .. مغرقة في اللهو واللعب .

وكانت صاحباتها يتهمنها فيما بينهن بأنها ذات مطامع ، ويخشين عليها أن تودى بها مطامعها ... ويسرقها الزمن دون أن تدرى .. فتجد نفسها فى النهاية صفر اليدين .. وقد ذهب جمالها وجفت نضرتها .

ولكنهن سمعن ذات يوم أن الفتاة على وشك الزواج .. وأصابتهن الدهشة وتلهفن شوقاً إلى معرفة الرجل العجيب الذى استطاع إقناعها أخيراً بعد طول تمنع منها وإحجام ... وزادت دهشتهن عندما علمن أن الرجل ليس به ما يميزه . فلا ثروة طائلة ولا مركز ممتاز ... ولكن الفتاة كان الحب قد أصابها فاستطاع أن ينزع من رأسها كل تفكير فى نجاح أو فشل ... وجعلها تخطو خطوتها غير عابئة بما سيقول الناس عنها وما سيشعرون به نحوها من إعجاب أو رثاء ...

وتزوجت الفتاة وكان عمل زوجها يضطرها إلى السفر معه بعيداً ، وإلى العيش فى القرى التى لم تعتد العيش فيها . وأشفق الناس على الفتاة المدللة من خشونة العيش وشظفه ، وعجبوا كيف يمكنها أن تحتمل الوحدة والغربة .. وهى التى لم تغترب يوماً واحداً .

ولكن خطابات الفتاة إلى أهلها كانت ملأى بالرضى والسعادة ... وبدا للقوم أنهم أخطئوا الظن بها .

وحملت الأنباء اليهم أنها قد أضحت أما .. وأنها سعيدة هانئة

بالطفل الذى أنجبته .. وأحس الناس لها بالرثاء ... وعجبوا كيف تستطيع تربية الطفل فى وحدتها وغربتها وسط تلك القرى النائية الخشنة .

ومر الزمن ... فإذا بالطفل قد بلغ من العمر سبعاً وإذا بأبيه يصاب بحمى .. لا تمهله كثيراً ولا قليلا . وإذا بالأنباء تحمل إلى القوم أن الأرملة الصغيرة فى طريقها اليهم . لتعود إلى العيش مرة أخرى فى دار أبويها بعد طول غيبة .

روع النبأ القوم وفجعتهم فجيعة الفتاة ، وأحسوا لها باللوعة والأسى ... وشعر أبواها العجوزان بوطأة المصاب وألمه ، فقد كانا يعلمان مدى حبها لزوجها وتعلقها به . كان الله فى عون الصغيرة فلا شك أن الصدمة قد هدت قواها .

وفى موعد وصول الفتاة ، ذهبت العائلة لانتظارها ، وقد اتشحوا بالسواد ووقفت الأم متكئة على يد ابنتها الصغرى وسار الأب مطرقاً فى حزن واكتئاب ...

كان الثلاثة يبدو عليهم الوجوم ، وكانت قلوبهم ملأى بالعطف والرثاء للقادمة الحزينة ، وكان كل منهم يتخيلها شاحبة الوجه مهدمة محطمة ، فيحس بلهفة إلى أن يحتويها فى صدره ويرفع عنها بعض أحزانها ...

وأخيراً وصلت الفتاة وفى يدها ابنها ...

ودهش الثلاثة من مرآها ، وأذهلهم منظرها وقد أقبلت نحوهم

باسمة ضاحكة بثوبها ذو الألوان الزاهية وبتلك الورود الحمراء التى تزين بها شعرها ..

ولوحت لهم بيدها ثم سارت أمامهم ، فلم يستطيعوا إلا أن يلوحوا لها ويسيروا خلفها فى خطى متعجلة متعثرة دون أن يجدوا فرصة لاحتضانها وتقبيلها ، وتناسى كل منهم ما كان يود أن يقوله لها من كلمات التعزية والعطف ...

وفى طريقهم إلى البيت لم ينبس أحد منهم ببنت شفة ، فقد اندفعت صاحبتنا تتحدث فى ثرثرة عجيبة ، فتحدثت عن كل شىء إلا شيئاً واحداً .. هو زوجها الراحل .

وفى البيت انهمكت فى إخراج ثيابها من الحقائب العديدة ... وأرتها أمها الحجرة التى قد أعدتها لها والفراش الذى أعدته للطفل بجوارها ولكنها صاحت ضاحكة :

— يا أماه .. لقد نما الطفل .. إنه فى حاجة إلى حجرة أخرى
وارتبكت الأم قليلا وأجابت :

— لقد ظننت أنك لاتودين إبعاده عنك فقد يخشى أن ينام بمفرده .. ولكن على أية حال يمكننى أن أجهز له الحجرة الصغيرة بسرعة ...

— نعم هذا أفضل يا أماه .. فهو شجاع كأبيه لايخشى شيئاً
وضحكت الأرملة الصغيرة بصوت مرتفع ، وربتت بيدها فى حنان

على ظهر الطفل الذى أحس بالكبرياء عندما شبه بأبيه وكانت أول مرة تذكر فيها الرجل الراحل .

ودخل الصبى الحجرة فأبدى سروره بها وبتلك الشجرة التى تتسلل فروعها من النافذة فتكاد تمس جدرانها .. ولكن شيئا واحداً بها هو الذى لم يعجبه .. وذلك هو النمر الرابض فى ركن الغرفة .. فقد أزعجه بعض الشئ رغم أنه يعرف تماماً أنه لايعدو أن يكون فراء محشواً بالقش وأنه لايملك له ضراً ولا نفعاً ، ولكن الصبى أخفى انزعاجه حتى يكون شجاعا كأبيه .

وكان أكثر ما يدهش الأب والأم هو ذلك النشاط العجيب الذى بدا على الإبنة الأرملة .. وهى التى كانت لاتفعل شيئا سوى الوقوف أمام المرآة وتلقى كلمات الاعجاب .. إذ لم تمض بضعة أيام حتى التحقت بعمل فى إحدى المستشفيات كان يشغل كل يومها وفى المساء كانت تتلقى دروساً فى الرسم ... وهى التى لم يكن هناك أثقل عليها فى صغرها من هذه الدروس .

وفى ذات ليلة وقفت أمها فى حجرتها تتأملها وهى تتزين فى المرآة .. وانتقل بصرها فى وجه ابنتها فاستقر على صورة صغيرة للزوج الراحل قد علقت فى الحائط فسألت :

– أليس لديك سوى هذه الصورة ؟

– لدى عشرات الصور .. ولكنى أفضل هذه لأنه يبدو فيها طبيعيا أكثر من غيرها .

وصمتت الأم لحظة ثم عادت تسأل :

- لم لا تعطين الصبي واحدة يعلقها في حجرته ؟

- يخيل إلي أنه قد نسي .. ولا أريد أن أبعث الذكرى في رأسه حتى لا يشقى في طفولته .

وهمت الأم أن تقول شيئاً ولكنها صمتت ، وأخذت تنظر إلى وجه الابنة فخيل اليها أنها تلمح شحوباً في جفونها لم تستطع المساحيق الثقيلة إخفاءه .. ورأت الهزال يدب في جسدها .

ولكنها رغم ذلك كانت لاتكف عن الضحك كعادتها .. بل وأكثر من عادتها .

وكان الصبي يحس أن أمه دائماً لهفة إلى الخروج ، فهو لايكاد يجلس إليها لحظة واحدة ...

وكان يشعر أنه وحيد في هذه الحياة ... وكثيراً ما كان يأوى إلى مضجعه فيحس رهبة تملأ قلبه .. ويشتد به الذعر من ذلك النمر الرابض في ركن الغرفة ... رغم تأكده أنه جامد لايتحرك ولكن عينيه كانتا تلمعان في الظلمة فتملؤه بالخوف ... وقام الفتى إلى التمثال فغطاه ببعض ثيابه وركله بقدمه ليؤكد لنفسه أنه لاشيء .. ثم عاد إلى فراشه .. ولكن الخوف لم يذهب عنه .. آه لو كان أبوه موجوداً للجأ إلى أحضانه وشكا إليه ذلك التمثال الوقح وطلب إليه تحطيمه ...

وبدأ الصبي يفرغ ما في رأسه من ذكريات عن أبيه .. وكانت

قليلة ضئيلة .. وأكثر هذا القليل الضئيل باهت شاحب ... تذكر أباه وهو يقذفه فى الهواء إلى أعلى ، وشعور الخوف الذى ينتابه وهو متدفع فى الهواء .. ثم شعور الاطمئنان الذى يحس به عندما يستقر بين يديه القويتين . وتذكر الليالى الباردة التى كانت تلفه أمه فيها بإحدى البطاطين وتضعه فى حجرها ثم تجلس فى انتظار أبيه حتى يأتى من الخارج فيوقظه ويعطى له ما أحضره من الحلوى ... وتذكر أخيراً ذلك المسرح الخشبى الذى أحضره له وتذكر سعادته فى ذلك اليوم وتذكر أنفاس أبيه تلفح وجهه ونفذت إلى أنفه رائحة التبغ التى كانت تفوح من أنفاسه حتى خيل إليه أن أباه قد أضحى قاب قوسين منه أو أدنى .. ومد يديه فلم يجد إلا الظلمة والفراغ .

وود الصبى لو يخبر أمه بما يذكره عن أبيه ... وود لو تحادثا عنه سوياً .. ولكنه كان يحس أنها تتجنب ذكره منذ ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى النزهة مع جيراتهم فلما عاد وجد أمه وحيدة فى الدار ثم خرجت به إلى حافة النهر حيث تعودا أن يجلسا مع أبيه وهنالك أخبرته أن أباه قد مات ، أى أنه ذهب ولن يعود وأن ذلك لن يغير من أمرهما شيئاً .

— إننا لايجب أن نصيح ولا أن نحزن ، لابد أن نمضى فى سبيلنا فلا يتملكنا ضعف أو وهن .

وكان الصبى يحس رغبة فى البكاء. ولهفة على الارتماء على صدرها ولكنها نهته بشدة قائلة : إن أباه لايرغب فى ذلك ولم يذكر

هو أنه رآها تبكي قط . ومن ذلك اليوم وهو يحس أنه تائه ضال ..
وأن أمه لاتأبه له أو تحس وجوده .. وأن أباه قد محى من ذاكرتها .

* * *

وكانت الأم تحس بالغبطة تملأ نفسها .. فإن ما كانت تخشاه لم يقع ... لم يرث لها أحد .. ولم يقل عنها امرؤ قط إنها « مسكينة » وهذا هو كل ما تبغى ... لقد انتصرت على الحياة .

ولكنها كانت في الواقع واهمة .. ففي ذات يوم كان أبواها قد جلس أحدهما قبالة الآخر وتساءلت الأم :

– فى أى يوم نحن ؟

– الرابع من مايو وهو الذكرى الثامنة لزواجها .. يا لها من مسكينة بائسة !

– وكان الصبى يجلس على مقربة منهما فسأل جدته فى سذاجة :

– ماذا يحدث يوم ذكرى الزواج ؟

وضحكت الجدة وربتت على خده .

– يقدم الزوج هدية لزوجته .. إذا تصادف وذكر اليوم .. وأرجو إذا ما أصبحت رجلا أن تذكر دائماً عيد زواجك ... حتى تكون زوجا طيباً :

وصمت الصبى لحظة ثم قفز من مكانه وأسرع إلى غرفته ..

لقد نوى أمراً .. ومد يده إلى حافظته فأخرج كل ما بها من القطع الفضية التي استطاع أن يقتصدها .. ثم التفت إلى تمثال النمر وركله بقدمه واندفع منطلقاً إلى الطريق .

ووقف أمام واجهة الحوانيت .. يفكر فى شئ يقدمه لأمه هدية فى ذكرى زواجها الثامنة ...

مشط .. زجاجة عطر .. قرط أو عقد كل هذه لاتصلح ... فعندها منها الجم الكثير . وفجأة سنح له خاطر برقت له أساريره .

تذكر ذات يوم وقد جلسوا فى الحديقة وانهمكت أمه فى العمل بالابرة وجلس هو يلعب مع أبيه .. ونظر أبوه إليه ثم إلى أمه وقال له باسماً :

— كم هى جميلة فاتنة !

فسمعت الأم وأطلقت ضحكة مرحة ناعمة ثم قالت :

— إنى على استعداد للتنازل عن نصف فتنتى لمن يأتينى بتفاحة كبيرة أغرس أسنانى فى جلدتها الناعمة الحمراء .

تذكر الصبى كل ذلك ، فانطلق إلى بائع الفاكهة وابتاع تفاحا بكل ما معه ، ثم وضعه فى كيس وانطلق به إلى الدار .

وتسلل الصبى إلى غرفته ثم أحضر ورقة صغيرة خط عليها :

« هدية ذكرى زواجك الثامنة .. لقد ذكرت ذات مرة أنك

تتنازلين عن نصف جمالك لمن يعطيك تفاحة واحدة ... هاك عشر تفاحات واحتفظي بجمالك » .

وتردد في الامضاء قليلا ... ولكنه كتب أخيرا « ابنك وأبوه » ثم وضع كيس التفاح على فراش أمه وغادر الغرفة .

وعادت أمه من الخارج ... وصعدت إلى غرفتها لتغير ملابسها .. وانتظر الصبي وقد اشتدت خفقات قلبه .. فقد كان يتوقع من آن لآخر أن يراها تهبط الدرج مسرعة وقد علت ضحكاتها .. وتشكره بقبلة كما كانت تفعل مع أبيه .

وطال انتظار الصبي واشتد به القلق فانسحب من وسط القوم وصعد إلى أمه .. واقترب من الغرفة فسمع صوتاً غريباً فدفع الباب ودلف إلى الداخل فإذا بالظلام يسود الغرفة .. وإذا بأمه راقدة في فراشها وقد أخفت وجهها في الوسادة وأخذ جسمها يهتز من فرط البكاء . وذهل الصبي وهمس في صوت خافت :

– مسكينة يا أماه ! :

وطرقت الكلمة سمعها ... فلم تغضب ولم تثر ... ومدت يدها فاحتضنت الصبي وأجلسته على الفراش بجوارها وهمست منتحبة .

– كيف أمكنك أن تذكر كل ذلك ... لقد خيل إلي أنك قد نسيت أباك .. وكم كنت أود أن تنساه .. حتى لا تتألم عندما تفتقده .

يا أماه إني لا يؤلمني افتقاده بقدر ما يؤلمني نسيانه .

وعلا صوت الجدة تذكر الأم بأن الوقت قد أزف للذهاب إلى الدرس .. ولكنها ردت عليها :

— لن أذهب يا أماه .. سأحتفل مع الصبى بالذكرى الثامنة لزواجى ولأول مرة أحست الأم الصغيرة بالراحة بعد أن فقدت زوجها .. لقد أطفأت الدموع بعض النار التى كانت تحاول أن تغلق عليها صدرها فتأكله كالهشيم ، وأحست كأنها كانت تعدو عدواً متواصلا وخلفها من يلهب ظهرها بالسوط ... وأنها ارتمت على الأرض تستريح وقد كف عنها السوط .

لقد كان يخيل إليها أنها استطاعت التغلب على الفشل ... ولكنها أدركت الآن أنها كانت تمعن فيه .. لقد كانت تخشى أن توهن الذكرى قواها فحاولت النسيان .. فكانت كالتائه فى بيداء مقفرة شديدة الحلكة ... وعندما حاول الصبى تذكرتها .. أحست بالدموع تنهمر من عينيها كالسيل ... وشعرت بالراحة تعود إليها وبالطمأنينة تملأ قلبها ... وعلمت أنه كثيراً ما تنفع الذكرى ...

وصمتت آمنة عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب أنصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

الليلة التاسعة
الراهبة

... إن بقائهن في الدير ليس زهداً في نعيم الحياة بل هرباً من شرورها فليس فيها ما يستحق الزهد .. إذ كأن ما بها كريه ممقوت وأسعد الناس فيها إنسان لم يولد .

ظلموها حيث وضعوها .. وظلموا معها الدير والرهبنة حينما زجوا بها وسط الراهبات . لقد تخيلوا أن وضعها في الدير — وهي في الرابعة من عمرها — لابد أن يصبغها بصبغة الزهد والتقشف ، وأن تربيتها منذ نعومة أظفارها ، في ذلك المكان المقدس المنعزل ، لابد غارس في نفسها الطيبة والخشوع ، فلا شك أن هذه الجدران العالية ستحجب عنها كل ما في الحياة الدنيا من مفاسد وشرور ، وأن تلك التعليمات الصارمة القاسية ستصوغها في قالب راهبة هادئة ، وقور محتشمة .

ولكن الصبية كانت شيطانة صغيرة ، عابثة ماجنة ، ولم تكن طبيعة خلقها لتلائم ذلك الجو الذي نشأت فيه . وكانت نفسها المرحة الضاحكة تتلهف شوقاً إلى رؤية ما وراء الجدران القاتمة المظلمة .. ولم يكن لديها شك في أن خارج هذا السجن الذي

تعيش فيه ، يوجد عالم مزدهر باسم ، يفيض بالنعيم ، ويزخر بالهناء والسعادة .

وكثيراً ما كانت تسائل نفسها : ترى ماذا يرغب هؤلاء الأغنياء الذين حولها في البقاء في هذا المكان الموحش البغيض ؟ لم يحرمون أنفسهم من نعيم الله ، ويزهدون في عطاياه ؟ لقد قالوا لها إنهم يشقون في الدنيا ليسعدوا في الآخرة ، وهي لاتستسيغ قولهم هذا قط ، فمع فرض أن هناك آخرة كما يقولون ، فلم لايسعدون في الدنيا والآخرة معاً .. ! وقالوا لها إن في هذا الزهد والحرمان مجلبة لرضاء الرب ، ولكنها لاتظن أن الرب يرضيه حرمانهم مما وهبهم ، ولا زهدهم فيما أعطاهم .. وإلا لوفر جهده وكف عن عطاياه ، وأحجم عن منحه . لا .. لا .. إنها لاتستطيع قط أن تهضم أقوالهم .. فإما أنهم مجانين ، وإما أنها هي المجنونة ، وإلا فكيف تصدق أن عملهم هذا هو السبيل لحمد الله وشكره ، وعلام يشكر الله ويحمد إذا كانوا قد زهدوا في كل ما منّ عليهم به ! . إنما مثل ذلك مثل السائل يعطيه المرء حسنة فيلقي بالحسنة في الثرى ، ثم يضيع عمره في شكر المحسن وحمده !

وهكذا لم تكن تعاليم الدير لتنفذ إلى قلب الصبية ، فقد كانت بكل ما حولها هازئة ساخرة ، وكانت لا تأبه لما ينزل بها من عقاب ، ما دامت قد أرضت نفسها المرحة اللاهية ، وما دامت قد أضحكت زميلاتها ، وبعثت إلى قلوبهن السرور والرضا .

وكانت الصبية ، رغم عبثها وشيطنتها ، محبوبة ممن فى الدير جميعاً ، إذ كان جمالها ولطفها يمحوان من القلوب سيئاتها .. وكانت كثيراً ما تضحك أكثر الراهبات عبوساً ، وأشدمن وقاراً ، بأعمالها الماجنة الهازلة .

ومرت السنون والصبية تزداد فى كل يوم كرهاً للدير ، ولهفة على الخروج منه ، وكانت تشعر شعور الواثق أن إقامتها فى هذا السجن لابد أن تصل إلى نهاية .. وأن حياتها فيه ليست إلا أمراً مؤقتاً ، فما هى بالتى تقنع من الدنيا الواسعة الحافلة بالملذات ، بمثل ذلك المكان الكريه المكتئب .

وبلغت الصبية الخامسة عشرة .. وأصبحت فتاة تزخر بالأنوثة ، وتفيض بالسحر .. وبدأت حيوية المراهقة تحشد فى نفسها القوى التى كان لابد أن تؤدى فى النهاية إلى انفجار لاشك فيه .

وفى ذات يوم حدث من الفتاة ما أغضب إحدى الراهبات ... فصفعتها على وجهها ، وكانت الصفعة هى الشرر الذى أدى إلى الانفجار ، فقد أحدثت فى نفس أثراً عميقاً ، جعلها تصمم فى النهاية على أن تفر من هذا الأسر والاستعباد ، وسنحت لها فرصة الفرار فاقتنصتها ، إذ طلبت منها رئيسة الدير أن تحضر لها بعض الكتب من صومعتها ، وأعطتها مفتاح الصومعة ، وهنالك وجدت الفتاة مفاتيح الدير معلقة فى الجدار ، فعادت بالكتب إلى الراهبة دون أن تغلق باب الصومعة .. ثم تسللت بعد ذلك تاركة الراهبات

منهمكات في الترتيل ، وعادت إلى الصومعة ، وتناولت المفاتيح وبعض النقود وإبرة وخيطاً ، ثم فرت هاربة !

وسارت في الطريق مبتعدة عن الدير حتى أقبل الليل ، فإذا بها في غابة من غابات البلوط ، وهناك أمضت ليلتها راقدة تحت إحدى الأشجار ... وما كاد الضوء يبين حتى بدأت تغير ملابسها ، فحولت « الجونيلة » الزرقاء الطويلة إلى سروال واسع فضفاض ... وحاكت من بقية ملابسها قميصاً وصديرياً ارتدتهما فوق السروال ، ثم قصت شعرها ، فبدت في مظهرها فتى رشيقاً جميلا ، ومضت تواصل سيرها نحو المدينة .

وأخذت الفتاة تتخبط على غير هدى في شوارع المدينة ، وقد بهرتها مناظرها ، وذهبت بلبها .. حتى إذا أنهكها التعب وكلت قدماها ، وأحست بالجوع يلهب أحشاءها .. قصدت إلى حانوت خباز عجوز ، وطلبت منه طعاماً .

وتبين فيها العجوز فتى غريباً عن المدينة ، جاهلا بكل ما فيها كأنه طفل غرير .. وسأله من أين أتى ، وإلى أن يذهب ، فأجاب الفتى أنه من الريف ؛ وقد أتى المدينة لأول مرة ، وأنه لا أهل له ولا أقرباء ، ولا مأوى .. وليس معه من النقود إلا ما يكفيه أياماً قلائل .

وعرض عليه الرجل أن يعمل في حانوته نظير القوت والمأوى ، فلم يتردد الفتى وأقبل على عمله في المخبز بهمة ونشاط .

واشتهر صبى الخباز ، وذاع صيته بين أهل المنطقة ، وكثيراً ما كان القوم يحتشدون على الحانوت لمشاهدة هزله ومجونه ، حتى بدأ الكهل يضيق به ذرعا ولم يجد خيراً من أن يخصص له عصاً لتأديبه والحد من أعماله الشيطانية ! وكثيراً ما كان القوم يرون الكهل قد ترك الحانوت ، وأخذ يعدو خلف الصبى وقد أمسك بعصاه منذراً مهدداً .

* * *

وكان للخباز ابناً فى نحو الثامنة عشرة من عمره اشتهر فى المدينة برسومه الرائعة فقد خلق فناناً موهوباً .. ووجد أبوه أنه لايصلح لشيء فى هذه الحياة إلا للرسم فنفض منه يديه وترك له الحبل على غاربه .. وكان الفتى قد وقع فى هوى فتاة حسناء ، تقطن أمام حانوت أبيه ، فأخذ ينصب شراكه حولها .

وبدأت الفتاة تلين للفتى ، وأخذت نظراتها له ترق وتتلطف . واغتبط الفتى وغمرته السعادة ، وخيل إليه أن الطريق أمامه قد أصبحت سهلة معبدة ، ولكن آماله أخذت تنهار ، عندما ظهر له فجأة حجر عثرة يسد عليه السبيل ، ولم يكن هذا الحجر إلا الفتى الوقح المهزار الذى اتخذه أبوه صبياً له ، فقد عرف كيف يلفت نظر الفتاة ويلهيها عنه .

تملك الغيظ ابن الخباز ، وبدأ صدره يمتلئ بالغضب على الفتى الشريد الماجن ، وأحنقه أن يهدم هذا الفتى الغر فى أيام ما بناه

هو في شهور ، وأخذت الغيرة تنهش قلبه ، وتقض مضجعه ! وحاول أن يوقع بالفتى عند أبيه ، ويحرضه على طرده ، ولكن الخباز كان رقيق القلب ، كثير العطف على صبيه ، رغم مايسببه له من مضايقة ، فأبى أن يطرده وتلمس له الأعذار .

وضاق الفتى بصبى أبيه ذرعاً ، ولم يستطع أن يكبح جماح غضبه أو يكتم سورة حنقه وحقده ، فقد كان الصبى يأبى إلا أن يسخر منه ، ويهزأ به أمام معشوقته ... وزاد الطين بلة أنه رأى الفتاة بعينى رأسه تغازل الصبى ذات مرة وتحاول إيقاعه في شراكها .. والصبى يتملص منها ، ويدفعها جانباً ويفر منها مولياً الأدبار !

وغاظه أن يكون لصبى أبيه مثل هذا السحر ، وتلك القدرة على جذب الفتاة ، حتى يصل الأمر بها إلى محاولة مغازلته وإيقاعه ! وصمم فى نفسه على أن يتحرش به فيضربه ضرباً مبرحاً !

وفى ذات صباح هال الخباز الكهل أن رأى الأرغفة تتطاير من الحانوت ، إذ قامت معركة حامية الوطيس بين ابنه وصبيه ، استخدم فيها كل مافى الحانوت من أدوات وأرغفة ، وأخيراً تمكن الرجل من وقف القتال ... وأسفرت المعركة عن هزيمة صبيه وإصابته ببضع كدمات وعدة خدوش .

وأدرك صبى الخباز — أو على الأصح أدركت فتاتنا الهاربة — بعد هذه « العلقة الساخنة » أن المسألة قد خرجت من دور المزاح ، وأنه لابد من الحذر وإلا انكشف أمرها وافتضح سرها ،

وخاصة أن الفتاة البلهاء - معشوقة الفتى - أضحت بها صباً مولعة ! .. وقد يوردها هذا الحب الغريب موارد العطب !

وحاول الخباز أن يدلك كدمات صبيه ويحنو عليه ، ولكن الفتى كان يفر منه ، وينأى عنه .. فتعجب الكهل من غرابة أموره وشذوذ تصرفه ، وأخذ الشك يتسرب إلى نفسه ، والريبة تتسلل إلى قلبه .. واعتقد أنه لابد أن يكون هناك سر يخفيه الفتى عنه .

وحاول الخباز جهده أن يعرف سر صبيه ، فلم يستطع .

ومرت الأيام والخباز في حيرة من أمر صبيه .. فقد بدا له أن الصبي بات شديد الحذر .. شديد الصمت والانطواء .. كأن هناك ما يقلقه ويشغل رأسه .

لقد كف الصبي عن هذره ومجنونه ، وبات متئداً فى كل حركة من حركاته . فى مشيته وجلسته ، وغدوته وروحته .

وكانت حيرة الإبن أشد من حيرة أبيه فلقد أدهشه أن يعرض الصبي عن الفتاة التي تتيم بها هو ، والتي كان يتمنى منها مجرد الحديث .

وحاول كليهما أن يكشف خبيئة الأمر ، ويعرف سر تطور الفتى ومبعث قلقه وخشيته وسبب إعراضه عن الحسناء المتيمة به ، وبدأ كل منهما يرقبه جيداً .. فلا يكاد يغادر الحانوت حتى يتسلل أحدهما وراءه .

وساور الخباز العجوز شك فى أن الصبي عاشق وأن وراء صمته

وانطوائه لابد أن تكون واقعة غرام وأن ذهنه الشارد الساهم لابد مستغرق في التفكير في فتاة وقع في غرامها .

ولكن الأيام لم تظهر له شيئاً ، وظل على حيرته من أمر الفتى حتى وقعت الواقعة ، وكشف الأمر محض مصادفة .

ففي ذات يوم ، كان الفتى يستحم ، وقد أسدل الستر على نوافذ الحمام ولكن الريح عبثت بإحداها فأزاحت طرفها ، وتصادف مرور الكهل في تلك اللحظة فاقترب من النافذة ليعيد الستار إلى مكانها ، ولكنه لم يكد يمد يده إلى الستار حتى أبصر ما أذهله .

رأى الكهل أمامه فتاة غضة بضة ، فياضة بالأنوثة ، متفجرة بالسحر والجاذبية فأخفى رأسه سريعاً ، وعاد مهرولا من حيث أتى .

وحاول الكهل أن يحتفظ لنفسه بالسر العجيب ، ولكن الابن بدأ يشك هو الآخر في صبي أبيه ، وانتهى به الأمر إلى معرفة الحقيقة !

وأخفى الابن والأب عن الفتاة أنهما قد عرفا حقيقة أمرها ولكن القلق أخذ يساورها ، فقد وجدت معاملة الفتى لها قد باتت ليناً ، وإذا بغلظته وفظاظته قد أصبحتا رقة ولطفاً ، وتبدل الكره حباً ، والبغض حناناً وعطفاً .

ولاذ الثلاثة بالصمت فقد كانت الفتاة تخشى أن يفتضح أمرها

فيطردها الخباز ، أو يعيدها إلى الدير ، وكان الرجلان يخشيان أن تكون الفتاة قد عرفت أن أمرها افتضح فتولى هاربة !

ولكن شيئاً واحداً جعل النفوس تفصح ، والألسنة تنطق فقد أخذ الحب ينشب مخالبه في قلب الفتى والفتاة فإذا بهما صريعا هوى ، قتيلا غرام ، ونسى الفتى معشوقته الأولى ، وبات بصبى أبيه صبا مولعاً ، وأقلع صبى الخباز عن هزله ومجونه ، وبدأ يمعن فى التجمل والتزين . وبدت عليه دلائل الدل والتيه وأخيراً ضاق الفتى ذرعاً بهذا التكتم ، وأحس لهفة إلى أن يبوح للفتاة بغرامه ويضمها بين ذراعيه .

ففى ذات مساء دخل الخباز داره ، فإذا بابنه قد ركع أمام صبيه يبثه نجواه .. فقهقه الرجل ، واستغرق فى الضحك ، وسأل ابنه :

– أما زلت تصر الآن على طرد الصبى كما كنت تصر من قبل ؟ !

– بل أشد إصرار يا أبت .. لأننى لا أرغب أن تكون زوجتى صبياً فى محل خباز !

* * *

وبدأت الفتاة تتمتع بالحب ، ومرت الأيام والفتاة هائمة يغمرها النعيم ، حتى أقبل عليها الفتى يخبرها ذات يوم بأنه يشعر بدوار فى رأسه .

ورقد الفتى يستريح ، وقد ظنت الفتاة أن ما به ليس إلا علة طارئة ، ولكن المرض اشتد بالفتى فى اليوم التالى .

وألحت سطوة المرض على الفتى ، واستفحل الداء وازدادت العلة تفاقماً ، وأخذ كبد الفتاة يتفتت ، وفؤادها ينفطر .

ولجأت الفتاة إلى الصلوات التي تعلمتها في الدير ، فأخذت تعيد تلاوتها ، مبتهلة إلى الله بعين دامعة ، وقلب واجف حزين ، أن يشفي فتاها ، غير أن العلة كانت تزداد تغلغلا .

وأخيراً .. وفي ذات ليلة مشئومة عم فيها الصمت وساد السكون ، كانت الفتاة تجلس بجوار الفتى ، فغفلت عيناها لحظة ، ثم استيقظت على صوت الكهل العجوز .. يئن أنيناً خافتاً متقطعاً وقد انحنى فوق ابنه المريض ، وبدأ وجهه في ضوء المصباح الخافت معروقاً جافاً .. تتساقط منه قطرات العرق والدموع !

وأدركت الفتاة ما حدث ، وشعرت بأن أطرافها قد جمدت ، فما عاد بها حراك ، وأخيراً صمت العجوز ، وكف عن الأنين ، وهوى جسده على الأرض . ومدت الفتاة يدها لتساعده على النهوض ، فإذا به هو الآخر قد أسلم الروح !

وفي الليل البهيم هربت الفتاة وهامت على وجهها من الدار المخيفة الموحشة ، وقادتها قدماها ، من حيث لا تدرى إلى الطريق الذى أتت منه إلى المدينة ، هاربة من الدير !

وسمعت الراهبات طارقا يطرق الباب في ظلام الليل ودخل الطارق فإذا به الفتاة الهاربة .

وفي صومعة الأم ، ركعت الفتاة وقد دفنت رأسها في حجرها

وأخذت الأم تربت عليها برفق وحنان مهدئة من روعها وهمست الفتاة بصوت متشنج يقطعه البكاء .

— يا أماه .. لقد فررت مرتين .. مرة من الدير إلى الحياة ومرة من الحياة إلى الدير .. وشعرت فى المرة الأولى أننى تركت الظلمة إلى النور ... والشقاء إلى النعيم .. ولكن النور لم يكن إلا بريقاً خادعاً ، والنعيم إلا سراباً خلباً ... وإذا بالحياة أشد ظلمة ، وأكثر وحشة ... وتلفت حولى فإذا ببصيص خافت يضئ لى حلكة الظلام .. ففررت إليه ، وعدت إلى الدير مرة أخرى .. فأحسست الأمن بين جدرانه القاتمة ، وبالطمأنينة بين حجراته الهادئة الساكنة .

وصمتت الفتاة لحظة ثم أردفت هامسة :

— قولى يا أماه للراهبات إن بقائهن فى الدير ليس زهداً فى نعيم الحياة .. بل هرباً من شرورها ... فليس فيها ما يستحق الزهد إذ كل ما بها كريه ممقوت وأسعد الناس فيها إنسان لم يولد !

* * *

وصمتت آمنة عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب أنصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

الليلة العاشرة

وفاء

بالوفاء الرجل .. وبالوفاء المرأة وباللأحمق الذى وضع فى قاموس البشر ... كلمة وفاء .

تبدأ القصة وقد استلقى أحد القواد فى فراشه ... يهذى من الحمى .. بعد أن أصابه جرح خطير عقب أول هجوم قام به الغزاة ... وقد ساد الحجرة صمت وخيمت عليها وحشة وظلمة .. وأمام الفراش .. جلست ابنته الفتية الحسناء .. وقد مال رأسها على صدرها .. وأغمضت عينيها .. وبدت كأنها فى سبات عميق ..

ومع ذلك فقد كانت الفتاة أبعد ما تكون عن السبات ... إذ كان ذهنها فى يقظة تامة .. ولكنه كان شارداً فى مكان آخر ... فقد كان يحلق بين صليل السيوف .. وصهيل الخيل .. يبحث عن وجه تحس له بحنين ولهفة .. وتجزع من أن يصيبه شر أو يمسه سوء .

ذلك الوجه الذى لم تكن تبصر فى الدنيا سواه .. والذى كانت تصهرها أنفاسه وتلهبها شفتاه .. ذلك الوجه الذى طالما أحست بالمتعة فى قربه .. وأثملها بريق عينيه .. ورنين ضحكاته الشبيهة بضحكات طفل مرح طروب ...

ترى أين هو من هذه المعركة التي يستعر أوارها وتتأجج نارها .. لشد ما تحس باللهفة إليه .. ولشد ما يصطخب في صدرها الشوق والحنين .. كم تمنت لو استطاعت أن تخوض غمار المعركة لتكون معه جنباً إلى جنب .. فما كان لهب المعركة بأحر من ذلك اللهب الذى يضطرم فى جوفها ...

بدأت الفتاة تستعيد إلى نفسها ذكريات حلوة ممتعة .. لتستعين بحلاوتها على مرارة الفرقة .. ولتطفىء بعذوبتها حرقة الجزع والقلق .. بدأت تذكر صباها وصباه .. أيام كانت الحياة لاتعدو أن تكون ملعباً للهو .. ومرتعاً للعب .. وتذكرت بعد ذلك كيف مرت بهما الأيام فإذا بها تحس بقلبها يخفق لمرآه .. وتحس برجفة تسرى فى كيانها إذا مسها .. وبحمرة تعلو وجهها إذا ما حدثها عنه أحد أو أتى ذكره على لسان ...

لقد علمت إذ ذاك .. أنها لابد أن يكون قد أصابها ما يسمونه الحب .. ولم تحس بغضاضة من أن يصيبها الحب .. فقد كان ممتعاً لذيذاً .. وكان يمحو بسحره كل سيئات الحياة .. ويبديها تافهة لاتستحق أن يفكر المرء فيها أو يحزن من أجلها ...

أجل .. لقد كان مجرد تفكيرها فى أنها ستلقاه وتسند رأسها إلى صدره وتسمع همساته العذبة . كفيل بأن يريها الحياة مضيئة براقة .. وأن يمحو كل ما بها من ضيق وتبرم .

ولكنها تحس الآن أن الحياة قد أضحت مظلمة ، فقد ذهب

فتاها إلى القتال وألقى فى أتون المعركة .. وهى تحس فى قلبها بانقباض وذعر لمجرد تصورها مصرعه .. فهؤلاء الغزاة البرابرة قساة أشرار يشملهم منظر الدماء كأنهم وحوش ضارية .. وهاهو أبوها قد عاد إليها مهيض الجناح مثخناً بالجراح ... ولا يعلم إلا الله موقفه بين الحياة والموت ...

وأحست الفتاة بلوعة وحسرة .. فلقد أحزنها الخوف من أن تفقد أباها .. إذ كان لها خير أب .. وكانت تراه نموذجاً بينم الرجال ...

وفتحت عينيها فجأة إذ أحست بحركة فى الفراش ... ورأت أباها يفتح عينيه وقد ارتسم الألم على وجهه وهمس فى صوت مبحوح :

— ماء ... أريد ماء .. إن جوفى يحترق .

وأسرعت الفتاة فأضاءت الحجرة .. وأمسكت بكوب من الماء واقتربت من الفراش وجلست على حافته .. ثم أحاطت جسده بإحدى يديها وأسندت رأسه إلى كتفها . ومدت الأخرى بالكوب إلى شفتيه .

وجرع الرجل كوب الماء فى لهفة .. ثم همس بصوت كأنه حشرجة الموت :

— أين أمك ؟

— فى الحجرة المجاورة تستريح ... فقد أضناها السهر وأعياها البكاء ... وقد ألح عليها الطبيب فى أن تأخذ قسطها من الراحة . أتريد أن أوقظها لك ؟ !

وانتفض الرجل وقال ببطء :

— لا .. لا .. إنى أريد أن أخاطبك على حدة .. إنى أحس بأنى قد أشرفت على النهاية ... وأخشى أن أموت قبل أن أبوح لك ببضع كلمات أحس كأنها جمرات تحرق صدرى .

ودهشت الفتاة وخيل إليها أن حديثه هذيان محموم ... فقالت له فى صوت ملىء بالعطف :

— هدىء نفسك يا أبتاه . لا داعى لأن تتعب نفسك بالحديث .

— إن الحديث لا يتعبنى .. إنى أحس أنه قد يخفف عنى بعض ذلك الحمل الذى أنقض ظهرى ... دعينى أتكلم .. فأنا أبعد ما أكون عن الهذيان ...

كان يجب على أن أتكلم قبل الآن ولكنى لم أكن أجد الشجاعة الكافية .. لقد خيل إلى بادىء الأمر أنى قد أخطأت فى حق أمك فقط ... فى حق زوجتى الوفية الطاهرة .. وظننت أن الأيام ستمحو الخطيئة ، وأن الزمن سيطويها .. فلا أعود أبصر بشبحها ينغص عيشى ويقض مضجعى .

دعينى أعود إلى أيام خلت .. كنت حينذاك فى عالم الغيب . وكنت أنا وأمك ما زلنا فى باكورة العمر وميعة الصبا ، وكنا وقتذاك

عشاقاً قد أثملتنا كأس الهوى ، وأسكرتنا خمرة الحب .. وكانت الحياة تبدو أمامنا نقية صافية .. ولا يغشاها كدر ولا تشوبها شائبة .. والطريق أمامنا معبد ممهد ، مليء بالورود والرياحين . فقد قبل أبوها زواجنا ، رغم ضآلة مركزها ورفعة مركزه إذ ذاك ، وفضلني على المئات من النبلاء والأعيان الذين كانوا يتلهفون على زواجها ، لأنه كان يعلم أن بيننا صلة حب ، وكان يحس أنني وحدى الذى أستطيع أن أسعد فتاته ...

وتم الزواج ... وكان يخيل لى وقتئذ .. أننى لن أستطيع أن أحتمل ذلك القدر من السعادة الذى تمتلىء به نفسى .. فما أظن أن هناك مخلوقاً فى هذه الحياة قد استطاع أن يحقق أمانيه كما حققت أمانى .. ما كنت أعتقد أن الأقدار قد بسمت لامرىء مثلما بسمت لى .. لقد كنت مثالا للرجل السعيد .

ومرت بنا الأيام ... لاتحمل فى طياتها إلا كل ما يبعث على الرضا .. ويملأ النفس بالهناء والغبطة .. حتى حدث لى ذات يوم حادث تافه ... بحيث كان يمكن بسهولة ألا يحدث ... وبحيث لو تأخر مجرى الحوادث أو تقدم بضع دقائق ، لما كان له محل بينها ... ومع ذلك فقد سبب هذا الحادث التافه كل ماطرأ على حياتى بعد ذاك من تغيير وتبديل .

كان ذلك فى إحدى الاستعراضات الكبرى التى كانت تقام مرة كل عام .. وكنت أعدو بجوادى فى إحدى اللعبات ... فحدث

أن سقط منديل إحدى السيدات في طريق الجواد فجأة .. ولم يكن يخيفه شيء قدر أن يلوح أمامه بورقة بيضاء أو منديل أبيض .. فأصابه الفزع ووقف مكانه مرة واحدة .. ولم أكن أتوقع منه قط مثل تلك الوقفة .. فاختل توازني وسقطت من فوق ظهره .. ولم تكن السقطة شديدة .. فسرعان ما اعتليت صهوته مرة أخرى بعد أن أخفيت المنديل في جيبي وهدأت من روعه .

وانتهى الحفل ... وبدأت الجماهير الحاشدة تغادر المكان .. وكدت أنسى ما كان من أمر ذلك المنديل الذى أسقطني من على ظهر الجواد .. لولا أن أحسست بيد تمس ذراعي مساً خفيفاً .. ووجدت سيدة صغيرة قد علت وجهها بسمة يشوبها كثير من خجل وسمعتها تتمتم ببعض كلمات الاعتذار .. فأدركت حينئذ أنها لابد وأن تكون صاحبة المنديل .. فأسرعت بإخراجه من جيبي لإعادته إليها ، ولكنها سألتني في رقة أن أبقيه معي . وأردفت مازحة :

— ولو أنه لن يكون إلا تذكار سوء ...

فأجبتها على سبيل المجاملة :

— على النقيض يا سيدتي .. لقد كان وسيلة تعارفنا .. وسأحمل له في نفسي أجمل الذكرى ...

هذا هو الحادث التافه .. وتلك هي الكلمات التى قلتها وقتئذ على سبيل المجاملة ، ولم أكن أعنى منها حرفاً واحداً .

وعلمت من السيدة أنها متزوجة .. وعرفتني بزوجها ، وكان

رجلا لطيف المعشر حلو الحديث .. فسرعان ما توطدت بيننا أواصر الصداقة .. وافترقنا بعد أن دعوتهما لزيارتنا فى دارنا .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت السيدة وزوجها خير صديقين لنا ... ورحبت أمك بهما أيما ترحيب .. وهنا يجب أن أعترف أنى بدأت أنزلق إلى مهاوى الخطيئة .. وتركت نفسى تنساب إلى مسالك الإثم دون أن أحاول مقاومة دوافع السوء ... على النقيض لقد مهدت لنفسى سبل الشر ، وذللت لها الصعاب ، وهيأت الفرص .

لقد كان على أن أدرك منذ أبصرت السيدة ، أن خير ما أفعله هو أن أولى منها فراراً ، فقد أحسست من أول نظرة اليها أن فتنتها شديدة الوطأة على نفسى ، وأن نظراتها الخجلة وبسمتها المعتذرة قد جعلت نفسى تذوب وقلبى يتخلل .

أجل ، كان على بمجرد أن أحسست ذلك الخطر الداهم .. وشعرت بأنى أحس حيالها بلين وضعف ، أن أقصر حديثى معها فأنصرف إلى سبيلى ، وأدعها تنصرف إلى سبيلها ، ولكنى كنت إنساناً ، فعلت كما يفعل كل إنسان ، ولم أحاول أن أزعج نفسى بحرمانها مما تحس بلهفة اليه ، فمهدت السبيل لإقامة الصداقة ... بل لأكثر من رؤية السيدة ، والتمتع بلقائها .

ولا أدرى كيف انتهى الأمر بى إلى التردى فى تلك الهوة التى ترديت فيها ، وإلى ارتكاب تلك الخطيئة المزدوجة .. خيانة زوجتى

الوفية ، وخديعة صديقىَ الأمين ولكنى أذكر أن الأمر قد حدث تدريجياً ودون أن نشعر كلانا بأننا نرتكب ما لو قصه أحد علينا لارتعينا من سماعه ، ولكننا كنا لانبصر ولا نحس ، وكانت تجذب كلينا إلى الآخر قوة جارفة ، والله أعلم بمبعثها ، أهوى الحب ، أم الشيطان .

وفى ذلك الوقت وضعت أمك ، فأنجبت طفلة ، ووضعت السيدة فأنجبت طفلا ، كان يعلم كلانا تمام العلم أنه ولدى أنا ، وأن الرجل الآخر لايمت له بصلة ، أجل ، لقد أنجبت فى وقت واحد ابنة وابنا . !

ومرت الأيام .. دون أن يكشف أحد خطيئتنا ، ودون أن يشك أحد فى أمرنا ، وبدأ الزمن يردنا إلى رشدنا ، وبدأت أحس مبلغ خيانتى لتلك المرأة الطاهرة النقية ، التى تمتلىء نفسها بالوفاء والاخلاص ... أجل لقد خنت العهد وجزيتها على الوفاء .. أسوأ جزاء .

وخيل إلى بعد ذلك أن الخطيئة ستمحوها الأيام ، وتذروها ريح الزمن ، وقد حدث هذا فعلا أول الأمر ، ولكنه لم يكن سوى خدعة من الأقدار ، التى أبت إلى أن تجعل منى أمثولة وأضحوكة ، فقد نما الطفل والطفلة ، وأصبحا شابين ، وإذا بالقدر يوقع كليهما فى هوى الآخر ، دون أن يدرى أحدهما الحقيقة المرة

وصمت الرجل وبدا عليه أنه يلهث من فرط التعب والانفعال

ونظرت اليه الفتاة فى ذهول ، وكأنها لاتستطيع أن تفهم معنى لما يقول ، إنه لاشك يهذى بما لايعى ... فقد أنهكته الحمى .

واستطرد الرجل بصوت مبحوح :

— يا بنيتى ، اغفرى لى ، فما خطر لى أن خطيئتى ستشد إلى عنقك ، إن هذا الفتى الذى تحبينه هو أخوك ... هو ابنى من السيدة الأخرى ... كم حاولت أن أبعدك عنه ولكنى لم أفلح ... رحماك اللهم ... ما كنت أظن أننى سأقوى على الاعتراف .. ولكن حمداً لله أنى قد استطعت أن أنبئك فى اللحظة الأخيرة .

وخفت صوت الرجل .. ثم أغمض عينيه فى إغفاءة أبدية .

* * *

وشيع الرجل إلى مقره الأخير ... وانطوت الفتاة على نفسها بعد ذلك فلم تغادر حجرتها قط ... وتملكها اليأس والحزن ... فبدت كأنها شبح من الأشباح ... حتى باتت أمها الحزينة تخشى عليها من أن تلحق بأبيها من فرط ما أصابها من هزال وسقم ... وحاولت أن تكشف عن خبيئة نفسها فلم تفز بطائل ... حتى كان ذات يوم فوجئت بعودة فتاها الحبيب . فأدهش الأم أن الفتاة لم تبد اللهفة على لقائه .. وأذهلتها نوبة البكاء التى عصفت بالفتاة فضمتها إلى صدرها .. وأصرت على أن تنبئها بذلك السر الذى تنطوى عليه نفسها .

وفي نوبة من القنوط واليأس تكلمت الفتاة .. فأنبأت أمها بذلك السر الذى باح به أبوها .

وفرغت الفتاة من الحديث .. فلم تبد على المرأة أية علامة من علامات الدهشة أو الحنق أو الحزن .. ونظرت إلى الأرض فى صمت ووجوم .. وهزت رأسها هزات ضعيفة وهمست كأنها تخاطب نفسها :

— يا للرجل الأحمق ، ما الذى حدا به لأن ينبئ الفتاة بهذه السخافات وهو بين يدى الموت ... ما كنت أظنه بمثل هذا الغباء ولكن أغلب ظنى أنه قد وقع تحت تأثير ذلك الهاجس الأحمق الذى يسمونه الضمير .

ثم رفعت رأسها إلى الفتاة قائلة .

— هيا يا بنية إلى فتاك ... واهنئى بهواه .. لقد كنت أعلم أنه حقاً ابن زوجى الراحل ... ولكن المسكين لم يكن يعرف أنك لم تكونى قط ابنته ...

وأنك ابنتى من الرجل الآخر .... ! !

يالوفاء الرجل .. ويالوفاء المرأة .. وياللأحمق الذى وضع فى قاموس البشر .. كلمة « وفاء » !

* * *

وصمتت آمنة عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب أنصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

الليلة الحادية عشرة
هبة الشيطان

أيها الأحمق .. هل ظننت أن هناك إنسانا يستطيع أن يعيش مع امرأة لحظة واحدة إذا كانت لديه القدرة على قراءة ما برأسها ؟

أنهكه السير وأضر به السغب ، وبدا وجهه شاحباً تعلوه غبرة هم وفترة كمد ، يهيم فى بيداء ليل شديد الحلكة قاتم السواد .. أقسمت قدماه ألا تخطوا خطوة واحدة فارتمى على درجات سلم وراح فى سبات عميق .

ومضت بضع ساعات ثم تنفس الصبح ... وخرجت أنفاسه الرقيقة تبدد الظلمات وتوقظ الهاجعين .. فأطلت الشمس من وراء المدينة وقد أدمت السماء ، وصبغت الأفق بحمرة ذهبية ... وبدت أمامها الحدائق الجميلة كأنها غادة تتمطى وتتثاءب وتفتح عينيها فى كسل واسترخاء ...

وكانت أولى علامات اليقظة فى المدينة الزاهرة الحافلة هى فتح أبواب المعابد التى تملأ أرجاء المدينة ، وكان من المعتاد أن يبصر المرء فى ذلك الزمن زرافات المتسولين وقد بدأوا يفدون على أبواب المعابد ليتخذوا أمكنتهم التى يستدرون منها عطف المحسنين

ولذا لم يدهش حارس المعبد عندما فتح الباب الضخم فأيقظ صريره ذلك الفتى العارى الذى اتخذ مضجعه على درج السلم الحجرى .

لم يدهش الرجل من وجود الفتى ، فقد تعود أن يبصر بالكثيرين من المتسولين يتخذون من باب المعبد مضجعاً ... ولكن الشئ الذى أدهشه هو مظهر النبل الذى لم تستطع يد الفقر أن تمحوه ، فبدا وجهه حلو التقاطيع جذاب الملامح .

وحياه الرجل ، وسأله من أين أتى ... ؟

وأجاب الفتى بصوت تملؤه الكآبة وتفيض منه المرارة :

— من مواطن البؤس والشقاء ومنابع اليأس والتعاسة .. أطارد الرزق فيفلت منى .. ويطاردنى الفقر والعوز فيأخذ بخناقى ويمسك بتلابيبى .

هل أستطيع يا سيدى أن أجد عندكم عملا أرتزق منه ؟

وأحس الرجل إخلاصاً في صوت الفتى فرق له قلبه وأفسح له صدره . وآواه إلى حجرته فأطعمه من جوع وآمنه من خوف .

وكان الرجل يشتغل مشعوذاً قبل أن يكون حارساً للمعبد ، فبدأ يلقن أصول الشعوذة عله يجد فيها مهنة يكتسب بها رزقه وكان الفتى فطناً ذكيا فسرعان ما أجدت معه الدروس فأتقن الكثير مما علمه الرجل وبدأ يخرج إلى المحافل والأسواق ليدهش الناس بألعابه وفنونه .

وذاع صيت الفتى وانتشر أمره وأصاب من عمله الجديد مالا

وفيراً ، وذهبت عنه مظاهر الفقر والعوز وحلت محلها مظاهر النعمة والثراء ، فاقتنى قصراً كبيراً وأحاط نفسه بالخدم والأتباع ولم ينس أستاذه ومصدر نعمته فأواه إلى قصره وأغدق عليه النعم والخيرات .

ومرت الأيام فإذا بالفتى لايقنع بما هو فيه ، وبدأ يضيق ذرعا بالشعوذة ، وود لو تعلم أصول السحر فصار ساحراً عظيما كما أضحى مشعوذاً ماهراً ، وطلب من الرجل أن يعلمه شيئاً من السحر فعلمه ما يعرف وبدأ الفتى يترك الشعوذة إلى السحر فأصاب الكثير من النجاح ، ولكن هذا الكثير لم يقنعه فقد تملكته الرغبة في أن يعمل بالسحر الحقيقي . لا بالسحر الذى يعتمد على خداع البصر والذى لايرى فيه هو إلا نوعا راقيا من الشعوذة . ولم يستطع الرجل أن يعلمه أكثر مما علمه .. فبدأ يلجأ إلى كتب السحر يقضي في قراءتها سواد ليله وشطراً كبيراً من يومه وأخذ ينقب فى المكتبات عن الكتب القديمة التى أكل البلى أوراقها ونسجت العناكب عليها خيوطها ، ولكنه لم يجد فيها سوى قشور لم تشبع رغبته ولم ترضى لهفته ...

ومرت السنون وهو يزداد ثراء وشهرة ، وتقدمت به السن فأشرف على الكهولة ومات معلمه الأول وما فتىء هو يجد فى البحث ويمعن فى الاطلاع .

وأخيرا ... وبعد أن كاد اليأس يتملكه . حملته قدماه ذات ليلة إلى حانوت فى إحدى الأزقة المظلمة ، وكان صاحبه قد انهمك

في القراءة على ضوء إحدى الشموع فدلف إلى الحانوت وأخذ يقلب برهة في الكتب المرصوصة على الرفوف فلما لم يجد بغيته هم بالانصراف ، وهنا رفع صاحب الحانوت رأسه وساله في صوت غير مكترث :

— عم تبحث يا سيدى ؟

ووقعت عيناه على وجه الرجل لأول مرة فأحس بقشعريرة تسرى في بدنه فلقد كان شكله يبعث على الذعر بحاجبيه المرفوعين وأنفه المعقوف وأذنيه الكبيرتين ولحيته المدببة ، ومضت برهة صمت تمالك فيها نفسه ، ثم أجاب :

— لا شئ .

— ولكنك كنت تبحث عن شئ .

— لم أجد ما أبحث عنه .

— وما يضيرك من أن تخبرني فقد أستطيع أن أجده لك .

— لافائدة ... لقد بحثت عنه عبثاً .

— ولكنى أؤكد لك أنى أستطيع أن أعطيك إياه ... حتى ولو لم تخبرنى عنه ...

— ثم مد يده بالكتاب الذى كان يقرأة قائلا :

— هاك ما تطلب .

— وماذا يكون !

– كتيب يعلمك السحر الحقيقي .. ويجعل منك رجلا خارقا تأتي بالمعجزات .

وتناول منه الكتاب، وأمسك به برهة وقد علت وجهه علامات الدهشة وسأله قائلا :

– ولكن من تكون ؟

– الشيطان ...

– أنت ! ! ؟ .... أنت الشيطان ؟ !

– أجل ياسيدى ... وهذا الكتيب هبة الشيطان .

وأخذ الرجل الكتاب وعاد إلى داره وقد تملكه ذهول شديد وهناك أغلق على نفسه حجرته وانكب على الكتاب يقرأه بلهفة شديدة .... وأوشك أن يتم قراءته دون أن يجد فيه شيئاً يثير الاهتمام ، حتى ظن أن الرجل قد سخر منه ... ولكنه لم يكد يصل إلى بضعة الأسطر الأخيرة حتى أصابته الدهشة وأخذ يعيد قراءتها مراراً وتكراراً ... لقد قرأ فيها أن لكل إنسان حواساً ولكن بعض الناس قد وهبوا حاسة سادسة ... كامنة في نفوسهم وهى حاسة قراءة أفكار الغير كأنها كتاب مفتوح . ويمكن الكشف عن هذه الحاسة وتنميتها يبعض عقاقير مخصوصة .

وبدأ يستحضر العقاقير المطلوبة وركب منها الجرعة التى ستظهر في نفسه تلك الحاسة الكامنة الخفية ...

وفى الليلة التالية تناول الجرعة . وكان عليه أن يقوم فى هذه

الليلة ببعض ألعابه فى وليمة أقامها الحاكم ... فذهب إلى القصر وقد أحس فى نفسه ثقة عجيبة .. وبدأ يقوم بأعمال السحر التى اعتاد القيام بها ... وقد أحاطه القوم بصيحات الاعجاب ... وعندما أوشك دوره على الانتهاء أحس فجأة كأنما قد فقد وعيه ... وبدا له كأن ذاكرته قد خلت من كل ما بها ، أو كأنما قد وضع على كتفيه رأساً يحمل ذهناً غير ذهنه ... وخيل اليه أن هناك هاتفاً يهتف فى أذنيه ثم رأى نفسه يتحدث كأن هناك قوة تسيطر عليه فتدفعه إلى الحديث .. وعلا صوته بين الجميع يقول :

– يا سيدى .. لايحزنك ما فعلت بالأمس من خيانة . فإن زوجتك لاتعلم عنها شيئاً .. لأنها هى نفسها كانت منهمكة فى خيانة مشابهة .

– وفغر الحاكم فاه من الدهشة .. وتحجرت عينا زوجته . وساد القوم سكون عميق .. ثم انسحب الحاكم من الغرفة بعد أن أمر بطرد الرجل شر طردة .

ولم يكن صاحبنا يحس شيئا مما أثاره ، بل إن ذهنه قد أخذ يتنقل بين رءوس القوم قارئا ما بها من أفكار ، معلناً عما بها من فضائح مثيراً بين القوم زوبعة عنيفة .. ، ولم يخفت صوته إلا عندما وجد نفسه ملقى على قارعة الطريق وقد لفته حلكة الليل .

وأفاق الرجل إلى نفسه وأدرك . ما حدث ، فلم يحزنه الأمر كثيراً ، فلقد سره أن يجد نفسه من أولئك الذين وهبوا الحاسة

السادسة ، وأنه يستطيع قراءة مافى الرءوس .. حقيقة إنه لم يستطع أن يتحكم فى تلك الحاسة ويسيطر على ذلك الهاتف الذى هتف فى نفسه ، ولكنه لاشك سيتمكن من السيطرة عليه بمرور الزمن وكثرة المران ...

ولم يطل به الأمر ، فقد استطاع بعد بضعة أسابيع أن يتحكم فى نفسه ويسيطر على تلك الحاسة فيستخدمها كما يشاء ، إذ لم يكن عليه إلا أن يغمض عينيه ويستدعى الحاسة الخفية ، فإذا بالهاتف يهتف فى أذنه ويسر له بكل ما خفى فى رأس من يريد ، وبذا استطاع أن يبصر بكل ما حوله من رياء ونفاق وخداع .

وبعد فترة اكتشف الرجل أن خيار الناس يستطيعون مقاومة قدرته ... فما كانت حاسته الجديدة لتنفذ إلى رءوسهم ، ووجد نفسه شديد الميل إلى مصادقتهم وكان يحس بالارتياح لهم والاطمئنان اليهم لأن رءوسهم ونفوسهم قد خلت من الشر والخديعة تماما .

وحاول الرجل الزواج غير مرة من نساء ادعين حبه ولكن الهاتف كشف له عن خبيئة نفوسهن ، فعرف أنهن مخادعات منافقات وأنهن كن يرغبن فى ماله أو شهرته . حتى صادف ذات يوم فتاة شغف بها حباً وسره منها أنها كانت من النوع الذى يقاوم سحره فلم يتمكن من النفاذ إلى رأسها ، وعجز الهاتف عن أن يسر إليه بما تضمر . فأدرك أنها من النوع الطاهر النقى الذى لايضمر شراً ولا يحمل خديعة .

وأحس الرجل بالاطمئنان إليها فأقدم على الزواج منها وأحس معها بحياة رغدة هنيئة فقد وجدها نموذجا للزوجة الوفية المخلصة .

ومرت الأيام به وهو يحس بنعمة الهدوء والاستقرار .

وفى ذات ليلة شعر الرجل بوعكة فعاد إلى داره مبكراً ... فأدهشه ألا يجد زوجته فى الدار ، وعصفت بنفسه الشكوك والوساوس ... ولكن طمأن نفسه أنه سيستطيع أن يقرأ ما فى رأسها لو كانت قد ارتكبت إثماً أو خيانة .

وأخيراً عادت الزوجة فلم يحاول أن يسألها أين كانت بل جلس إليها وركز كل قدرته فى إثارة حاسته وبدأ يستدعى الهاتف لكى ينبئه بما خفى من أمرها ويقرأ له كل ما حواه ذهنها ... ولكن الهاتف لم يتكلم وأحس إزاءها بالعجز والقصور .

وغمرت الرجل موجة من الفرح فقد عادت إليه ثقته بزوجته إذ تأكد أنها ليست بامرأة سوء وإلا فضح الهاتف أمرها وهتك سترها .. وأحس لأول مرة بنعمة هذه الحاسة التى تكشف له عن فعل السوء وخبيئة الشر ... فقد أنقذته من شكوك كانت تأكل صدره وتنهش قلبه .. جزى الله الشيطان خير الجزاء على هبته ومنحته ..

وفى الليلة التالية أحس الرجل بقدميه تحملانه إلى الزقاق المظلم حيث لقى الشيطان فى حانوته أول مرة ، لقد كانت به رغبة جارفة

لأن يسوق للشيطان الشكر على هبته والحمد على فضله ، ووقف الرجل أمام الشيطان يلقى إليه التحية .

فرفع إليه رأسه ببطء ورد تحيته ثم سأله فى شئ من الدهشة :

— أهذا أنت .. ؟ كيف حالك ؟ ماذا أتى بك ؟

جئت لأشكرك .

— وعلام . ؟

— على هبتك الثمينة .. التى ملأت نفسى ثقة بزوجتى واطمئنانا إلى وفائها وإخلاصها ... ولولاها لكنت الآن أسير شكوك ولقتلتنى الوساوس والهموم .

وهز الشيطان رأسه وأجاب بصوت فيه رنة سخرية .

— لا شكر على واجب .

ثم صمت برهة ، وأردف قائلا :

— لا شك أن الرجال خير من النساء ، ولو أنصف الله لخلقنى امرأة .

وسأله الرجل فى كثير من الدهشة .

— ولم يا سيدى ؟

— على الأقل لأنهم لاينسون الجميل . فقد جئت أنت تشكرنى على هبتى لك ، بينما لم تفكر هى فى أن تسوق إلى كلمة شكر على هبتى لها .

– هى ؟ ! من هى ؟!

– زوجتك ..

– وهل وهبتها شيئاً ؟

– أجل .. وهبتها هبة تستطيع أن تقام بها قدرتك على قراءة أفكارها مهما ارتكبت من سيئات .

وصاح الرجل فى صوت يفيض بالمرارة .

– أنت فعلت ذلك ؟ ! أيها الشرير الخبيث .

– أيها الأحمق ... هل ظننت أن هناك إنسانا يستطيع أن يعيش مع امرأة لحظة واحدة إذا كانت لديه القدرة على قراءة ما برأسها ؟ يالك من غبى ساذج !

– إنى أحمق حقاً ... لأنى وثقت بشيطان .

وأشد حمقاً لأنك وثقت بامرأة .

وعاد الرجل إلى داره حزيناً مهموماً .. ما كان أغناه عن هبة الشيطان ... ولكنه معذور فما كان يعلم أن الشيطان حليف المرأة .

★ ★ ★

وصمتت آمنة عن الحديث عندما لاحت بشائر الفجر وفى الليلة التالية بعد العشاء والرقص والطرب أنصت القوم فعاودت حديثها قائلة :

الليلة الثانية عشرة

سمار الليالي

وخرجوا إلى الشاطئ فإذا بالمدينة جميلة حالمة وإذا بالمحاربين قد أضحوا عشاق النهر .. سمار الليالي .

لم يكن يفصلهما سوى ذلك النهر الذى يجرى فى صمت وسكون فلا يسمع لخريره إلا همسات عذبة كأنها همسات الحب يسكبها النهر فى آذان الشجرات الصاغية الواعية فتترنح من فرط الطرب وتهتز أعطافها من نشوة الهوى .

كان النهر يجرى فى بقعة من الأرض كأنها قطعة من الفردوس وكان كل ما فيها جميلا إلا قاطنيها ... فقد حرموا من الاستقرار والهدوء ، وطغى مافى قلوبهم من بغض وكراهية على ما فى الأرض من فتنة وجمال ، فضاعت الفتنة وذهب الجمال .

لم يكن هناك مكان تنطبق عليه حكمة القائل « ما أجمل الحياة لولا لؤم الإنسان » إلا هذا المكان ، لقد كان كل ما فيه ضاحكا باسما ، وكانت الطبيعة هناك فى ربيع دائم ، لاحر ولا قر ولا ريح صر .. بل نسيم رخيم النغمات ورياض نضر مورقات مزدهرات لاتكاد تقع العين إلا على كل ما هو ساحر باهر جذاب خلاب إلا

الإنسان ، فهو مغمور في أحقاده مشغول بشروره وفجوره وأشجانه وأحزانه .

أيها النهر الصامت بشطيه الساكنين ، « أين عشاقك سمار الليالى » . وأين زفرات الحب ورنات القبل ، لقد أقفر ما بينك وبين الحب والهوى والنعيم والحياة ، وزاحم فيك البغض والعداء الحب في مستقره وموطنه .

على ضفتي النهر كان يقطن قومان متباينان ، وكان كلاهما يمثل العداوة في الأرض ، فالأولون أصحاب الدار المليئة بالخيرات ... والآخرون من المستوطنين الذين استكثروا الخيرات على أهلها فرغبوا في بعضها . ثم دفعهم شره الانسان وطمعه إلى أن ينكروا على الدار أهلها فيحاولوا أن يستأثروا بها لأنفسهم فيصبحوا هم الأسياد وغيرهم العبيد .

كان القومان في قلق دائم وهم مقيم ، يتحفز كلاهما للآخر .. ويبيت من تحفزه مجهداً مضنى .. ويخشى كلاهما الآخر ويمسى من خشيته مرتعد الأوصال مسلوب اللب ، فهم بين الرغبة في القتال والخوف منه قد أقض الهم مضاجعهم وأضاع الفزع رشدهم ... وأرض الله فيما بينهم واسعة مليئة بالنعيم حافلة بالخيرات ، تدعوهم بما فيها من سحر وفتنة إلى الوئام والسلام ولكن الحقد قد أعمى بصيرتهم والضغينة قد أصمت آذانهم فما عادوا يبصرون ولا يسمعون .

وكان كل فريق يرى فى الشاطىء الذى يقطنه الآخر منطقة محرمة مليئة بالأخطار ولم يكن هناك من يجرؤ على أن يعبر النهر إلا في الأمكنة البعيدة عن المعسكرين المتقاتلين .

واستمر العداء مستحكما بين الفريقين فلم يكن ثمة أمل في مهادنة أو رغبة في سلام ... فقد كان العداء بينهما على أشده وكان الفريقان مختلفين في الطبائع والعادات ولم يكن هناك بينهما أية صلة ولا شبهة ، اللهم إلا إذا استثنينا من ذلك شيئا واحد .

كان الشبه الوحيد الكائن فى كلا الفريقين قد وضعه الله فى مخلوقين مغمورين هما : فتى من الشاطىء الشرقى . وفتاة من الشاطىء الغربى وقد يكون الاثنان فى خلقا فى الحياة وبين أحدهما والآخر أميال من المحيطات والجبال ، ولكن لاشك هناك أنهما قد خلقا من طينة واحدة فقد كان بين نفسيهما من الصلة والشبه ما يجعل الانسان يجزم أنهما روح واحدة قد قسمت فى جسدين .

كان الفتى شاعراً والفتاة شاعرة .. وكان فياض الشعور وكانت رقيقة الحس مرهفته وكان كلاهما يفيض قلبه بالرقة والحنان ويملأ نفسه الحب لكل مخلوق والعطف على كل كائن وكانا يستطيعان أن يبصرا من الدنيا فتنتها وسحرها ، ويحزنهما أن يريا الانسان قد استبدل بحسنات الكون شروراً وسيئات وانصرف عن نعيم الحياة إلى بؤسها وشقائها .

لم يكن أحدهما يحس للآخر وجوداً ولكن كليهما كان يلجأ

قبيل الغسق فى كل يوم إلى شجرة وارفة الظلال على ربوة عالية على كلتا الضفتين ويضطجع بظهره على جذع الشجرة الضخم ثم يغمض عينيه نصف إغماضة ويذهب فى إغراقه بين الوهم والحقيقة .

كان كلاهما يحس وقتئذ أن الحياة جميلة فقد ارتفعا بأبصارهما قليلا عن الأرض ... فاختفى من أمامهما شبح الإنسان . واختفى معه اللؤم والخسة والشرور والآثام ، والبغض والحقد والنزاع والنفاق ... كل هذا اختفى فبدت الدنيا نقية صافية لاتشوبها شائبة ولا يعلق بها كدر ، وبدت أمامهما أطراف الأشجار المورقة الخضراء تهتز من نشوة وطرب والطيور تنتقل بينها مزقزقة مغردة ووراء هذا ... الأفق تذوب فيه حمرة الشفق فى زرقة السماء ، والنهر الهادىء تجرى مياهه كأنها أمل لاينقطع ورجاء مستمر . كان الفتى والفتاة يبصران كل ما فى الكون يسبح بحمد الله ... إلا الانسان الأحمق الضال ... التائه فى بيداء الأطماع والشرور .

كانت الفتاة تتذكر يوم رحلوا إلى هذه البقعة وقد ملأهم الأمل فى أن يغترفوا من فيض خيراتها فى سعادة أبدية .. ولكنهم ما كادوا يحطون رحالهم حتى فوجئوا بسهام تنهال عليهم من كل صوب وحدب ، وأسرع قومها إلى أسلحتهم فأجابوهم بوابل من الرصاص أفزعهم وأطار ثوابهم ففروا هاربين لا يلوون على شئ .

ومنذ ذلك الوقت لم يعرفوا طعما للهدوء والاستقرار .. ولم

يفارقهم الخوف أو الجزع فكأنهم فى ميدان قتال دائم ، لاينقطع لهم كر ولافر . ولا هجوم ولا دفاع ، وأحاطوا مقرهم بأسوار عالية ووضعوا عليها الحراس المسلحين وكانوا يعتبرون الأعداء مردة وشياطين .

وهزت الفتاة رأسها متعجبة .. ترى إلى متى يستمر هذا النضال والقتال ، لم لايتفاهم القومان ويتآخيان ، ويقتسمان الرزق فى الأرض فيعيش كلاهما فى هدوء واطمئنان فما من شك أنهم آدميون كغيرهم من أبناء آدم ، فلاهم بوحوش ولا مردة وكل ما فى الأمر أن الانسان جبل على أن يكره ما يجهل .

وفي الجانب الآخر كان الفتي يذكر عندما أتى هؤلاء الأغراب لأول مرة ... كم شعر بالسرور والرغبة فى الذهاب إلى لقائهم ومصادقتهم ولكن قومه توجسوا منهم خيفة وتوقعوا شراً فوضعوا الخطط لقتالهم وإبادتهم أو إرجاعهم من حيث أتوا .

وانطلقت السهام ولكنها ردت اليهم فى فرقعة مفزعة وأطلق الأغراب عليهم أشياء مسحورة تئز وتطن وتحمل فى جوفها الموت الزؤام ، وتأكد قومه أن الأغراب من السحرة الأشرار .

ومن ذلك اليوم أصبحت الحياة جحيما مستمرا ، وتبدل الأمن خوفا .. والدعة فزعا وقلقاً ، والسكينة نزاعا وشجارا .

وعجب الفتي .. ماضر قومه لو استقبلوا الأغراب بغير السهام فأكرموا وفادتهم وأفسحوا لهم صدرا رحبا .. وأولوهم عطفاً

وحبا ! لم يتنازعون على الرزق وأرض الله الفسيحة مليئة به ؟ لايخلدون إلى الهدوء ويكفون أنفسهم شر القتال ؟ لايطوون أحقادهم في صدورهم وينعمون بما في الدنيا من مباهج وملاذ ... لم يتهمون الأغراب بأنهم سحرة أشراراً ؟ ألا يحتمل أن يكونوا أناساً طيبي القلب لايبغون الأذى لهم ولا يرغبون إلا في العيش بجوارهم ؟ من يدرى ما كان يحدث لو لم يستفزوهم بإطلاق السهام عليهم ويبدؤهم بالعداء والكراهية .

ثم يسقط الظلام وتعود الفتاة الشاعرة إلى دارها . ويؤوب الفتى الرقيق المرهف الحس إلى مضجعه فيرقدان في سكينة وهدوء .

وفي ذات يوم خرجت الفتاة مع رفيقين لها . وانساب بهن قارب صغير على مياه النهر في رفق وتؤدة . وحملهن التيار إلى مكان ناء بعيد عن البلدتين .. وكانت الشمس ساطعة في غير إحراق وأديم السماء أصفى من عيني الديك .. ومياه النهر بها برودة لطيفة ممتعة .. والمكان قد خلا من الكائنات وساده السكون كأنه من غير هذه الدنيا الصاخبة ...

وتمهلت الفتيات ورسون بقاربهن على إحدى الضفاف وربطن القارب في جذع شجرة قد حنت أغصانها على النهر ومست فروعها مياهه كأنها تهم بتقبيلها .

وكان لجمال المكان في نفس الفتاة الشاعرة فعل السحر ... وأغرى هدوء الماء وصفاؤه الفتاة بالاستحمام ، فانسابت في الماء

كأنها جنية من جنيات البحر وأخذت تسبح بجوار الشاطئ جذلة مبتهجة .

وجلست رفيقتاها على الشاطئ تبعثان بالرمال وتتقاذفان بالثمار وعلى حين غرة سمعتا حفيفاً بين الأشجار وأبصرت عدة رجال من الأعداء يتقدمون نحوها ، فجمدت الفتاتان فى مكانهما ثم صرختا صرخة مدوية وقفزتا إلى القارب تبغيان الفرار ، ولكن الرجال لحقوا بهما وأمسكوهما فى شدة وعنف وقفز أحدهم إلى الماء وقبض على الفتاة السابحة اللاهية وحملها بين يديه إلى الشاطئ ، وكممت الفتيات واختفى الرجال بين الأشجار المتكاثفة يحملون صيدهم الثمين .

وأقبل الليل وبحث القوم عن الفتيات الثلاث فلم يجدوهن ، وأخيراً عثروا على القارب وقد ظهرت حوله آثار أقدام الرجال والفتيات فتبين لهم حقيقة ما حدث .

وجن جنون القوم وثارت ثائرتهم ، ونفخ فى البوق فقاموا إلى أسلحتهم مزمجرين صاخبين وانقضوا على أعدائهم فى بهمة الليل فأشبعوهم ذبحاً وتقتيلا ، وحمى وطيس المعركة بين القوم واختلط الحابل بالنابل ، وسالت الدماء أنهاراً ...

وفى ذلك الحين كانت الفتيات الثلاث سجينات يرتجفن من الهلع ، وكانت فتاتنا الشاعرة قد شحب وجهها من فرط الذعر ، وبدا عليها الشرود والذهول ، لقد كانت حسنة الظن بهؤلاء

الوحوش الضارية وكانت تنكر على قومها بدأهم بالعداء والكراهية ، وكانت تتمنى لو تآلفوا معهم فعاشوا سوياً فى أمن وسلام .. ولكن بدا لها الآن أنها كانت واهمة فى ظنونها وأن قلوبهم مليئة بالشر مفعمة بالأذى .

ما أغباهم وأضيق عقولهم ، فكلهم آدميون .. فى الحمق والغباء سواء ، ينفقون الحياة فى الاقتتال على الحياة فيكون نصيبهم الموت ولو أضاعوها فى غير الاقتتال لكان نصيبهم غير الموت ولكانت الحياة عندهم أحلى مذاقاً وأعذب مورداً .

وسمعت الفتاة صوت إطلاق الرصاص فأدركت أن قومها قد اكتشفوا اختطافهن وأنهم قد هاجموا الأعداء لإنقاذهن .

وأحست الفتاة أنه خير لها أن تبقى أسيرة مدى الحياة على أن يندفع القوم فى هذا القتال الرهيب ، ولكنها كانت تعلم أنهم إن لم يقتتلوا من أجلهن ، فسيقتتلون لعلة أخرى ، إذ لابد لهم من الاقتتال حتى يفنى أحدهم الآخر .

ثم انقطع دوى الرصاص ، وساد السكون ، وسمعت الفتاة أصوات أقدام كثيرة تقترب منها فخيل إليها أن قومها قد أتوا لإنقاذها ، ولكنها ذهلت عندما أبصرت بكبير قومها وقائدهم قد سار مكبلا بين الأعداء .

وأيقنت الفتاة أن الفناء بات من نصيب قومها ، وأن الأعداء قد فتكوا بهم وقضوا عليهم فأصابها اليأس والحزن .

ولكن عندما أصبح اليوم التالي كان الأعداء في غمرة من السرور وكانوا منهمكين في الاحتفال بانتصارهم ، ورأت الفتيات أن الحراس قد ثملوا وأضحوا في شغل شاغل عنهن وأن الفرصة سانحة للفرار ، فما كادت ظلمة الليل تقبل حتى تسللن إلى الشاطئ هاربات .

وهناك وقفن يتهامسن ويبحثن عن طريقة لعبور النهر خلسة وسمعن حفيفاً بين أوراق الشجر وسرت فيهن الرجفة عندما رأين فتى من الأعداء قد استند بظهره إلى إحدى الأشجار .

وانتظرن أن يقفز الفتى عليهن فيعيدهن إلى حيث كن ، ولكن الفتى لم يحرك ساكناً ونظر إليهن في هدوء ثم قال :غلب ظني أنكن الفتيات الثلاث اللاتي كن السبب في تلك المعركة الأخيرة . ولم يجبه الفتيات فاستمر الفتى يقول :

– يخيل لي أنكن هاربات من الأسر .

وقام الفتى من مكانه ثم لف حول الشجرة وعاد فسحب قارباً صغيرا دفعه في الماء وأشار إليهن أن يركبن فيه ثم قال :

– لاشك أنه ليس لديكن قارب لعبور النهر ، فيمكنكن استعمال قاربي .

وذهلت الفتاة وخيل إليهن أن الفتى يسخر منهن ، ولكن القارب مضى يشق بهن المياه متجها إلى الشاطئ الآخر .

ونزلت الفتيات ووقف الفتى يحذرهن قائلا :

— إياكن والعودة إلى مثل هذه الحماقة حتى لاتثرن معركة أخرى ، لقد أقضوا مضجعى فى الليلة السابقة بقتالهم ، وحرمونى من الاستمتاع بالهدوء والسكينة ، ولا أدرى إلى متى يستمرون فى هذا الشجار والنزاع ؟

وعجبت الفتاة الشاعرة من حديث الفتى : لقد خيل إليها أنه ينطق بلسانها ويحس إحساسها وعندما همت بتوديعه لوحت إليه مشيرة إلى إحدى الأشجار :

— إن لى مضجعاً فى هذه الشجرة مثل مضجعك أرقب منه سحر الدنيا وفتنتها ، فلعلنا نلتقى لنرقبها سوياً .

ولم يعد الفتى يرى تحت شجرته بعد ذلك ، بل كان يرى تحت شجرة الفتاة فقد كان يتسلل حيث يلتقى بها ليرشفا كؤوس الحب .

وأحزنهما أن يكون فى الحياة مثل هذا النعيم ، فيغمض الانسان عنه عينيه .

وبدآ ينفذان خطتهما فى سكون وكانت تنحصر فى أن يحولا قومهما شيئاً فشيئاً إلى عشاق مدلهين ، وأن يقربا بين قلوب الفتية والفتيات من بين قومها وقومه ويستمرا فى خطتهما حتى يمتلئ النهر بالعشاق ، فيصرفهم الهوى عن القتال ، ويستبدلوا جحيم الحرب بنعيم الحب .

وكانت العملية أسهل كثيراً مما تخيل الفتى والفتاة ، وسرعان

مانجحا في خطتهما نجاحاً منقطع النظير ، فبعد فترة وجيزة ، كان النهر يفيض بهمسات العشق ، وبأحاديث الهوى .

وذات يوم اجتمع قادة الشاطئ الشرقي من الساسة الكهول ، وقرروا القيام بهجوم يحشدون فيه كل قواهم حتى يقضوا على أهل الشاطئ الغربي قضاء مبرماً ...

وقبيل الغسق نفخ في البوق لكي يحتشد الرجال ، ولكن الساسة والقادة لم يجدوا في المدينة رجلا واحدا ، وسمع قادة الأعداء وساستهم نذير الحرب في الشاطيء الآخر ، فنفخوا في بوقهم كي يستعد رجالهم لمقابلة الهجوم ، ولكنهم وجدوا مدينتهم هي الأخرى خاوية على عروشها ...

وشعر كل من ساسة القومين بالخور والجبن ، لقد كانوا يحبون القتال عندما كانوا يجدون الرجال ليدفعوا بهم وقودا في أتون الحرب ، وينعموا هم بمشاهدة النار المتأججة ، ويفاخروا بعد ذلك بالبطولة ويعقدوا على هاماتهم أكاليل المجد والفخار . أما الآن وقد خلت المدينة من الرجال وأصبحوا هم الذين سيصيبهم شر القتال ، فلا كانت الحرب ولا كان القتال .

وخرجوا إلى الشاطيء .. فإذا بالمدينة جميلة حالمة ... وإذا بالشاطيء مليء بالهمسات .. وإذا بالمحاربين الذين افتقدوهم في المدينة قد انتشروا على الشاطئين ... وأصبحوا عشاق النهر ... سمار الليالي ...

الخاتمة

كيف يكون على الأرض السلام إذا كان في نفوسنا المقت والحقد والبغضاء والضغينة ؟

وصمتت آمنة في الفجر واستغرق القوم في السبات وعندما بدأ اجتماعهم قبل مغرب اليوم التالي . صمت القوم فقال أحدهم :

— مالكم صامتين ... لنبدأ النقاش .

فأجابه آخر :

— علام النقاش ، وعلام البغض والقطيعة ، وعلام الحرب والقتال آ إذا كان الرابح أشد خسارة من الخاسر ، فعلام نضيع عمرنا في الشقاء والله قد أغدق علينا نعماءه ، علام نبكي والدنيا باسمة ضاحكة ، إن على الأرض السكينة والسلام وفي نفوسنا المقت والحقد والبغضاء والضغينة .

« ليل[1] ساهر العيون تتلو عليك ألحاظه آيه العطف والبر ، وصباح مؤتلق الجبين يطالعك من مشرفه وجه اليمن والخير ولكن آلافا من المهج لا مشرق فيها لأنوار النعيم واللهو وآلافا من النفوس لا مفجر فيها لعيون الهناء والصفو ، ولو كرم الانسان ما شقت هذه الأنفس .

---

(١) محمد السباعي في كتاب السمر

« ما أجمل الحياة لولا لؤم الانسان .

« أما لو تراحم الناس فجرى بينهم الود والثقة مجرى الذهب والفضة إذا لأسفرت وجوه شاحبة عليها غبرة الغم وقترة الكمد إذا لنبع الحب من البغض والصلة من القطيعة كما يبعث الربيع الضاحك من قبر الشتاء ... إذا لما قلنا .

« ما أجمل الحياة لولا لؤم الانسان ... »

أو لولا حمق الانسان وأنانيته وطمعه .

★ ★ ★

وصمت القوم برهة ثم انفصم عقدهم وعاد كل منهم إلى عشيرته ليبشرها بالسلام الأبدى والسكينة الدائمة .

وفى إحدى حجرات القصر كانت شفتان تتمتمان فى خفوت هامسة لله بآيات الشكر والحمد .

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

رقم الايداع ٢٠١٤/٨٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة